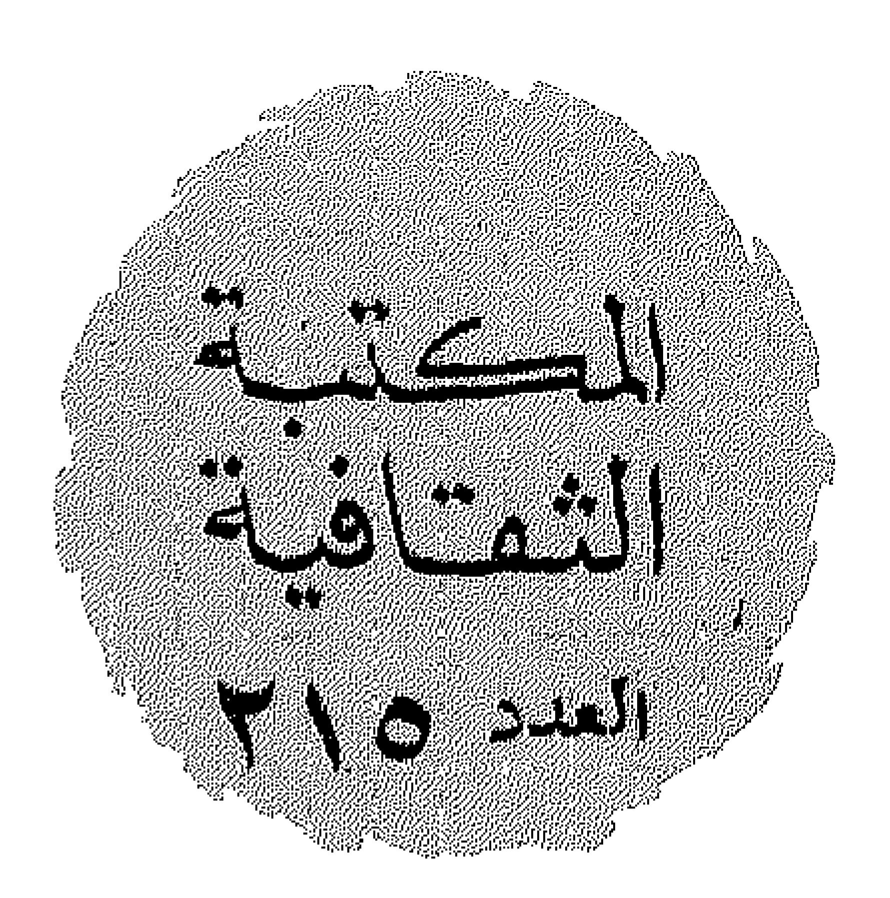


المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية

تأليف : الدكتور حسين نصار

المكتبة الثقافية
جامعة حرة
٢١٥

ثورات الشعبية في مصر الإسلامية

تأليف : الدكتور حسين نصار

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

لا يريد هذا الكتـاب أن يؤرخ لمصر فى حقبـة من حياتها ، فذلك أبعد ما يكون عن هدفه • وانما يرمى الى تسجيل جانب معين من جوانب الحياة المصرية لايزال فى حاجة الى التسجيل والتوضيح • ذلك هو الثورات المصرية فى العهد الاسلامى الاول ، أى فى القرون الثلاثة الاولى التى تلت الفتـح العربى لمصر ، وتنتهى بدخول الفاطميين واقامة الخلافة الشيعية •

ولكنه أهمل ثورتين كبيرتين أو ان شئت الدقة ثلاثا متعمدا • تلك هى الثورة الطولونية والاخشيدية ، وثورة ابن الخليج لاعادة الحكم الطولونى الى مصر • فهذا الكتاب يعتبر قيام هاتين الدولتين ثمرة ثورات وحركات يراد بها

مقاومة النفوذ العباسى • ولكنهما لما كانتا دولتين معروفتين لا يظللهما أى خفاء ، لم يعن بهما الكتاب •

وحق أن هذا الكتاب من وحى الثورة التى تعيش فى ظلها مصر فى هذه الأيام ، بل تعيش فى ظلها البلاد العربية كلها • ولكنه يرجو أن يكون تأثير الثورة فيه قاصرا على الايحاء به ، ولا يتعدى ذلك الى النفوذ فى مشاعر الكاتب، فتصطبغ فى عينيه الأحداث بصبغة غير لونها الحق ، ويرى فيها ما يجانب الحق أو ما يخالفه ولو بعض المخالفة • فالحق هو الهدف الأسمى لكل باحث ، وواجب أن يؤثره كل دارس على كل هوى •

وراعى الكتاب فى مواضع متعددة أن ينوه بأن ما وصل الينا من الأخبار يجعلنا نحكم بهذا الحكم أو ذاك • وهذا التنويه ضرورى ، لأننا لم تصل الينا الأخبار المصرية مفصلة مبسوطة شأنها شأن العراق والشام مثلا • فقد ضاع كثير من الكتب التاريخية التى ألفها المصريون فى تاريخ أحداث وطنهم ، ولم يصل الينا الى اليوم الا قليل أما الكتب العامة أو الموسوعية التى ألفها العراقيون أو المقيمون فى العراق أو المعتمدون على كتب العراقيين ، فكان همها الأول أحداث حاضرة الخلافة : العراق ، ثم الاحداث التى تهز العراق نفسه هزا عنيفا • ويكفينا لابانة قصورها فى التاريخ المصرى أن نقول انها لا تذكر كثيرا من أخبار الدولتين الطولونية والاخشيدية على خطرهما أو تشير اليا اشارة مجملة • ولما كان الأمر كذلك ، كان من المهم تتبع

أحداث التاريخ المصرى فى المظان المختلفة ، وجمعهـــا ، وترتيبها ، وربطها ، وتعليلهـــا ، لأن من يطلع على كتب التاريخ العامة التى أشرت اليها ، يخرج بصورة مشوهة كل التشويه عن تاريخ مصر ٠

وقد أثرت قلة المراجع فى القدرة على التعرف الكامل على جميع الاحداث التى وقعت فى مصر ، لأن المحتمل بل المرجح أن تكون قـــد وقعت بعض الأمور التى أفلتت من الكتب الباقية ، وربمـــا كانت مذكورة فى بعض الكتب المفقودة ٠ وأثرت أيضـــا فى التعرف الكامل على جميـــع الملابسات والظروف والتطورات والنتائج التى ارتبطت بأى حدث من هذه الأحداث ، ولذلك كان من الضرورى الاعتماد على التخمين فى بعض الأحيان ، وترك بعض الجوانب مبهما أو مظلما فى بعضها الآخر ٠ بل اضطر الكتاب فى أحايين الى مجـــرد سرد قائمة بحركات المقـــاومة دون اضافة أية معلومات عليها ، اذ ليست هذه المعلومات بين يديه ٠

وعلى الرغم من كل هذه المصـــاعب ، خرج الكتاب بقدر طيب من الثورات استطاع أن يؤرخ لها ، ويصف ما أمكنه من تطوراتها ، وأن يجعلها أصنافا مختلفة ، وضع كل صنف منها فى فصل على حدة ٠

ونهجت فى تقسيم الـــكتاب نهجا حتمه الموضوع ، فجعلته بابين : أولهما للثورات الحمراء التى ضحى فيها بالدماء ، وثانيهما للثورات البيضاء التى لجأ فيها المصريون

الى وسائل أخرى حفظت لهم دماءهم . ورأيت أن الباب الأول يحتوى على صنفين متمايزين من الثورات : ثورات كانت صدى لثورات شبت فى المشرق ، وثورات اندلع لهيبها لأسباب محلية . فصدرت الكتاب بالنوع الأول لأنه كان الأول ظهورا ، ثم عالجت الصنف الثانى . وحاولت جاهدا أن أستكمل الأسباب لايضاح جوانب كل ثورة دون اضافة شيء من عندى ، لا يعتمد على المراجع القديمة ، حتى لا أفتات على الحقيقة التى أسعى وراءها . وزدت على البابين السـابقين بابا ثالثا للثورات الكبيرة التى قامت فى مصر ونجحت فى اقامة امارة خاصة وبهذا النهج أرجو أن أكون قد أفلحت فى القاء الضوء على هذا الموضوع الهام ، الذى أظن أن صورته مشوهة غير حقيقية لدى كثير من المثقفين ، وفى ابانة الجوانب المختلفة منه على قدر ما تسمح المراجع الموجودة .

والله أسأل التوفيق والهداية

حسين نصار

الباب الأول

الثورات الحمراء

الفصل الأول

ثورات العلويين

اشتهر المصرى بالدعة ، وحب السلام ، والقناعة والرضا بما يتعاقب عليه من أحوال ، وكراهية العنف .

تلقف تلك الخصائص المؤرخون الذين لا يتعمقون الأمور ،ولا يستقصون البحث ، فظنوها ضعفا فى طبيعة المصرى ، وخورا فى قلبه ، وقال قائلهم عن المصريين : « عبيد لمن غلب » .

ذلك ما اشتهرت به مصر عند القدماء من المؤرخين ، فما مبلغ صحة هذه الشهرة ، وما أسسها ؟

يعجب المرء ـ للوهلة الأولى ـ اذ يرى هذا الوصف ، والمصريون يتألفون من عنصرين : العنصر القبطى ، وهو العنصر المصرى القديم ، وهو مشهود له بالاصالة والحضارة، ومشهود له بما أبداه من مقاومة ايجابية وسلبية لمن تقلبوا

عليه من محتلين ، حتى صب عليه أباطرة الرومان : وثنيهم ومسيحيهم ، فنون الاضطهاد والتعذيب ، فما وهن له عود، والعنصر العربى ، وهو العنصر المصرى الحديث ، وهو غنى عن الحديث عنه فى ثوراته وغاراته • فماذا حدث فى مصر لهذين العنصرين حتى ضربت عليهما الاستكانة ؟

انه أمر عجب • ولذلك يخصص له هـذا البحث ، الذى يحـاول أن يتحرى الحقيقة خالصة ، وأن يخلص الى عللها الحق •

ولعل أول ما يبحث عنه البـاحث صـدى أحـداث الشرق فى مصر ، أعنى وقع الثورات والفتن التى قامت فى بلاد الخلافة الاســلامية شرق مصر ، على المصريين : هل كانوا بمعزل عنها ، أو استجابوا لها ؟

وأول فتنة قامت فى الخلافة الاسلامية ، هى ما سمى بالفتنة الكبرى ، أيام عثمان وهى فتنة معروفة الأحداث ، مشهورة الأسباب والنتائج ، تعرض لها كثير من المؤرخين فجلوها أحسن جلاء • ودور المصريين فيها معروف ليس به خفاء ، وهـو ليس دور المنعزل ولا المتفرج ، وانما دور القائم بنصيب لا يقل عن نصيب أى شريك آخر ، ان لم يفقه •

فالطبرى يقول :

كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم

فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام . فأخرجوه حتى أتى مصر فقال لهم فيما يقول : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى » . فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها . ثم قال لهم بعد ذلك : « انه كان ألف نبى ، ولكل نبى وصى ، وكان على وصى محمد » . ثم قال :« محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء » . ثم قال بعد ذلك : « من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووثب على وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتناول أمر الأمة » . ثم قال لهم بعد ذلك : « ان عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه ، وابدءوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الأمر » . فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه . ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك . ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض اذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون . فيقول أهل كل مصر :

« انا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء » • الا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : انا لفى عافية مما فيه الناس » •

فأتى بعض أهل المدينة عثمان فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، أيأتيك عن الناس الذى يأتينا ؟ » فقال : « ما جاءنى الا السلامة ، وأنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا على » • قالوا : «نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم » • فأرسل الرسل ، ومنهم عمار بن ياسر الى مصر • فرجعوا جميعا الا عمارا ، فقد استطاع المصريون استمالته الى صفهم •

واستدعى عثمان ولاة الأمصار المختلفة لاستشارتهم، فخرج اليه عبد الله بن سعد والى مصر واستخلف عقبة بن عامر الجهنى أو السائب بن هشام فى رجب سنة ٣٥ هـ • فثار عليه محمد بن أبى حذيفة فى شوال وأخرجه من الفسطاط ، واستولى على امارة مصر ، وتابعه أهل مصر جميعا الا جماعة من أنصار عثمان •

ودعا محمد بن أبى حذيفة الى خلع عثمان وحرض عليه بكل ما استطاع • فكان يكتب الرسائل على ألسنة زوجات النبى ثم يأخذ النوق فيضمرها ، والرجال الذين يريد أن يتظاهروا بالاتيان بهذه الرسائل من المدينة فيجعلهم على ظهور البيوت لتلوحهم الشمس تلويح المسافر ثم يأمرهم بالخروج الى الطريق الآتى من المدينة الى مصر ،

وبارسال رسل قبل قدومهم ليخبروا النـــاس بمجيئهم ، فاذا لقيهم أحد وسألهم عن الاخبـار قالوا : « الخبر في الكتب » • ثم يخرج محمد بن أبى حذيفـة والناس كأنه يستقبل رسل زوجات النبى ، فاذا لقوهم قالوا : « لا خبر عندنا ، عليكم بالمسجد » فيجتمع الناس فى المسجد ، ثم يقوم قارىء فيقرأ الرسائل ، وفيها : « انا لنشكو الى الله واليكم ما صنع فى الاسلام » • فيقوم شيوخ وضعهم ابن أبى حذيفة في نواحى المسجد فيضجون بالبكاء • ثم يقوم هو فيرتقى المنبر ويحرض الناس •

وأرسل أنصار عثمان من المصريين يعرفونه الخبر ، فأوفد ســـعد بن أبى وقاص ليصلـح أمرهم ويهد بهم • فحرض محمد بن أبى حذيفة أعوانه على سعد ، فخرج اليه جماعة منهم فقلبوا عليه خيمته وجرحوه وسبوه ، فركب من وقته وعاد من حيث جاء •

وتكاتب المنحرفون عن عثمان في الأمصار المختلفة ، وتواعدوا أن يقـــدموا الى المدينة لينظروا فيمـا يريدون ويحاسبوا عثمان • فأخرج محمد بن أبى حذيفة ستمائة مصرى ، على كل مائة منهـــم قائـد ، وعليهم جميعـــا عبد الرحمن بن عديس الباوى • وخرجت الوفود جميعـــا مظهرة أنها تريد الحج وتقابلوا بذى خشب على ثلاث ليال من المدينة ، وكان هوى أهل البصرة فى طلحة ، وأهل الكوفة فى الزبير ، وأهل مصر فى على • ولمـا ســـمع أهل المدينة بمقدمهم تحصنوا وتسلحوا وتأهبوا لمقـاومتهم • فتآمرت

الوفود بأهل المدينة اذ أظهرت التفرق والعودة الى أمصارها، فخـــدع أهل المدينة وتركوا سـلاحهم ، فلم يشعروا الا والتكبير فى أرجاء المدينة والوفود فى داخلها تحيط بعثمان. ولما سألهم أهل المدينة عن عودتهم ذكر المصريون أنهم أخذوا مـع بريد عثمان رســالة بقتلهم ، وصــدقهم الكوفيون والبصريون .

وكان المصريون هم الذين أحرقوا باب دور عثمان، واقتحموها ، وأسهموا فى قتله ، وقتل بعض المدافعين عنه ، حتى قال الطبرى عن محمد بن اسحاق : « كانوا أشد أهل الأمصار عليه » . ورجع المصريون الى بلدهم ، وقد حققوا ما أرادوا : انهاء خلافة عثمان ، وتنصيب على وقد افتخر شاعرهم بذلك ، فقال وهم يدخلون الفسطاط:

خذها اليك واحـــذرن أبا حســـن
انا نمـــر الحرب امـرار الرســـن
بالسيف كى نخمد نيران الفتن

ولم تهدأ الاحوال بمصر ، بل انقسمت الى فئتين : فئة علوية آل اليها الحكم وعلى رأسها محمد بن أبى حذيفة وفئة عثمانية تطالب بالثأر لدم عثمان وعلى رأسها معاوية بن حديج . وابتعد العثمانيون (*) الى الصعيد ليكونوا بمنأى عن محمد بن أبى حذيفة . فأرسل اليهم جيشـــا

(*) نسبة الى الخليفة عثمان ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنه .

فالتقوا بدقناش من البهنسا (من مركز بني مزار بمديرية المنيا) فانهزم جيش الوالى · وانتقل العثمانيون من الصعيد الى برقة ثم دخلوا مصر من الاسكندرية · فأرسل الوالى جيشا التقى بالعثمانيين فى خربتا (من مركز النجيلة بمديرية البحيرة) في أول رمضان ٣٦ هـ ، فأب بالهزيمة أيضا ·

وراسل العثمانيون معاوية بن أبى سفيان ليدخل مصر ، وينتزعها من محمد بن أبى حذيفة فاتى معاوية وعمرو بن العاص فى جيش ، فحاولا دخول مصر ، فلم يقدرا · فلم يزالا يخدعان محمد بن أبى حذيفة حتى خرج الى العريش فى ألف رجل · فجاءه عمرو ونصب المنجنيق عليه حتى نزل فى ثلاثين من أصحابه ، فيهم عبد الرحمن بن عديس قائد الجيش المصرى الذى قتل عثمان · فأخذهم معاوية وسجنهم باللد ، ولكنهم فروا ، فتتبعهم والى فلسطين وقبض عليهم وقتلهم ·

وهدأت الأحوال مدة على الرغم من افتراق أهل مصر الى أن ولى محمد بن أبى بكر الصديق ، فكتب الى معاوية بن حديج والخارجين معه يدعوه الى بيعته فلم يجيبوه · فهدم دورهم ونهب أموالهم وسجن ذراريهم · فبلغهم ذلك، فاستعدوا لقتاله ، وهموا بالمسير اليه · فلما علم أنه لا قوة له بهم ، أمسك عنهم وصالحهم على أن يتركهم يلحقون بمعاوية · وكان معاوية « يهاب أهل مصر لقربهم

منه وشدتهم على من كان على رأى عثمان ، وكان يرجو أنه اذا ظهر عليها ظهر على حرب على لعظم خراجها » • ولكن العثمانيين من المصريين شجعوه عليها فأرسل عمرو بن العاص في جيش من ستة آلاف رجل ، انضم اليه الساخطون من المصريين •

وخرج محمد بن أبى بكر فى نحو من ألفى رجل ، وعلى مقدمته كنانة بن بشر • فالتقت الجيوش بالمسناة واقتتلت قتالا عنيفا • فجعل عمرو بن العاص يرسل الكتيبة بعد الكتيبة • وجعل كنانة بن بشر لا تأتيه كتيبة من أهل الشام الا شد عليها بمن معه فضربها حتى تفر الى عمرو • فلما رأى عمرو ذلك رأى أن يضرب المصريين بالمصريين ، فبعث الى معاوية بن حديج رأس عثمانية مصر • فأتاه فى مثل الظلام فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ولما رأى كنانة ذلك نزل عن فرسه ونزل أصحابه ، وضاربهم بسيفه حتى استشهد • فتفرق أصحاب محمد بن أبى بكر عنه ، ففر ولجأ الى خربة ، فأخذ وقتل قتلة شنيعة • وبلغ من عنف القتال يومئذ ، أن قال عمرو بن العاص : « شهدت أربعة وعشرين زحفا فلم أر يوما كيوم المسناة ولم أر الأبطال الا يومئذ » • وكانت تلك الموقعة فى صفر ٣٨ هـ ، وكان فيها القضاء المبرم على العلويين فى مصر ، اذ لم يظهر لهم شأن فى العهد الأموى كله •

ولكن ما ان بدأت الخلافة العباسية حتى عاود

العلويون الظهور بمصر • فقد أراد الخروج على المنصور بالمدينة محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ، وأرسل الى مصر ثلاثة نفر يدعون له : أخاه موسى ، وابنه على بن محمد ، ومطرا صاحب الحمام • فأتوا - فيما يقول الكندى وابن تغرى بردى - فى عهد حميد بن قحطبة والى مصر عام ١٤٣ هـ ونزلوا على تمامة بن عمرو المعافرى • فذكر ذلك صاحب البريد لحميد بن قحطبة وطلب اليه أن يقبض عليهم • فكره ذلك حميد وقال : « هذا كذب » • ودس الى على بن محمد من نصحه بالاختفاء ، ثم بعث اليه فى الغد يبحث عنه فلم يجده ، فقال لصاحب البريد : « ألم أعلمك أنه كذب » • ولكنه لم تنطل عليه الخدعة ، فأرسل الى المنصور يعرفه الأمر • فسخط على حميد وعزله فى ذى القعدة ١٤٤ هـ ، وولى يزيد بن حاتم المهلبى • فاتخذ هذا عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج على شرطته ، وقد عرفنا كراهية جده للعلويين •

وفى ولاية المهلبى انتشرت دعوة العلويين ، والتف كثير من المصريين حول على بن محمد العلوى ، وقام بالدعوة له خالد بن سعيد الصدفى ، وكان جده ربيعة بن حبيش من خواص على بن أبى طالب • وانضم اليهم بعض الامويين أمثال دحية بن المصعب ، ومنصور الأشل بن الأصبغ ، وأخيه زيد ، من أبناء عبد العزيز بن مروان فى مصر ، لنقمتهم على العباسيين الذين انتزعوا السلطة من أيديهم

وكان الأمويون أشد سخطا من غيرهم ، وأعظم عنفا ،حتى أشاروا على خالد الصدفى ، أن يغير على يزيد بن حاتم والى مصر ليلا على غرة ويضرم عليه النار . ولكن بقية أعوانه عدلوا عن هذه الخطة ، وأشاروا عليه أن يستولى على بيت المال ثم يعلن ثورته فى المسجد الجامع . فمال الصدفى الى رأيهم .

وخاف بعض اليمنيين من أهل مصر أن ينفذ الصدفى رأى الامويين ، فيقتل يزيد بن حاتم المهلبى الوالى ، وهو يمنى الأصل مثلهم ، فخرج رجل منهم كان قد شهد أمر الصدفى كله ، وذهب الى عبد الله بن عبد الرحمن قائد الشرطة ، وأبلغه الخبر . فذهب هذا الى الوالى ليبلغه . وكان ذلك لعشر خلون من شوال سنة خمس وأربعين ومائة .

وبالليل خرج خالد بن سعيد الصدفى فى أنصاره ، وقد ارتدى قباء وعمامة من الخز الأصفر ، وأعلم فرسه ، وذهبوا الى المسجد الجامع . فوجد الحرس على بيت المال ، فتقاتلوا عليه ، ولكنه لم يستطع أن يغنم منه غير القليل وبعث المهلبى الوالى قائد الشرطة فى ثلاثة نفر ليستطلعوا الأمر ، وقال لهم : « ان رأيتم المصابيح فى الدور فهو أمر عام ، فانصرفوا الى ، والا فأتوا المسجد فاعلموا الخبر »

وتبين للوالى أن الأمر يسير ، فجمع ما استطاع من جموعه ، وكان كثير منهم يأتيه سكران ، ففرقهم فى النواحى ليحيطوا بالثائرين . وأطبقوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة عشر رجلا ، وفر جماعة ، وأسر جماعة . وكان من

الفارين قائد الثورة خالد بن سعيد الصدفى ، اذ أنه لما أحيط بهم دون أن يشعروا ، خاف عليه قائد الشرطة ابن حديج فصاح فيه باللغة القبطية منبها اياه وطالبا اليه الفرار ففر • وقد فعل به ذلك لكونهما يمنيين • واستجار خالد باسماعيل بن حيوة الحضرمى ثم بعياش ابن عقبة ، فأبيا أن يخفياه عندهما • فلجأ الى يحيى بن جابر الحضرمى ، فآواه سبعين ليلة حتى سكن البحث عنه وهدأ أمره • وقد أمر المهلبى الوالى بعد ذلك باطلاق سراح الأسرى •

أما الدعاة الثلاثة الذين أرسلهم النفس الزكية للدعوة له فقد أجمعت المراجع التاريخية على عدم الاشارة الى ما حدث لثالثهم ، وهو مطر ، وذكر الطبرى وأبو الفرج أن موسى بن عبد الله نجا وفر من مصر ، وقبض عليه بعد ، واختلف فى أمر على بن محمد فذكر الطبرى وأبو الفرج وابن الأثير أن والى مصر قبض عليه وأرسله الى المنصور ، فاعترف على أبيه وأصحابه • وذكر أبو الفرج أن المنصور « حبسه مع أهله فمات معهم ، وقد قيل انه بقى فى الحبس فمات فى أيام المهدى ، والصحيح أنه توفى فى أيام أبى جعفر » • وذكر الكندى أن على بن محمد لم يقبض عليه ، وانما اختفى عند عسامة بن عمرو المعافرى ، الذى أنزله بقرية له من طوة بعيدا عن الفسطاط فمرض على بها ومات فدفن بها • وقبض على عسامة فأرسل الى العراق وحبس زمانا • فلما تولى المهدى الخلافة تشفع أبو عبيد الله

الأشعرى كاتبه فى عسامة ، لما بين قبيلتيهما من مودة •
فأمنه المهدى على أن يذكر له أمر على بن محمد صادقا •
فقال : « مات والله يا أمير المؤمنين فى بينى لاشك فيه » •
فصدقه المهدى وكافأه ورده الى مصر •

وهدأت الأحوال تمام الهدوء عندما استطاع العباسيون القضاء على الثورة العلوية بالحجاز ، التى كانت الثورة المصرية صدى لها • فقد قضى المنصور على ثورة محمد بن عبد الله بالحجاز ، ثم ثورة أخيه ابراهيم بباخمرى من العراق • ثمّ أرسل الرسل والخطباء الى مصر برأس ابراهيم فى ذى الحجة ١٤٥ • فنصبوه فى المسجد الجامع وقام الخطباء فذكروا أمره •

وذكر الطبرى (٣ : ٤٣٣) :

أن أبا جعفر لما قتل محمد بن عبد الله بالمدينة ، وأخاه ابراهيم بباخمرى ، وخرج ابراهيم بن حسن بن حسن بمصر فحمل اليه ، كتب الى بنى على بن أبى طالب بالمدينة كتابا ، يذكر لهم فيه ابراهيم بن الحسن بن الحسن وخروجه بمصر ، وأنه لم يفعل ذلك الا عن رأيهم ، وأنهم يدبون فى طلب السلطان ، ويلتمسون بذلك القطيعة والعقوق •• » • ولا تذكر بقية المراجع شيئا عن ابراهيم ابن الحسن الذى أشار اليه الطبرى ، كما أن كل من سمى باسم قريب من هذا الاسم وخرج مع محمد بن عبد الله كان بالحجاز لا مصر ، ويبدو أن الاسم اختلط على الطبرى ،

وأنه كان يريد على بن محمد بن عبد الله ، الذى تكلمنا عنه .

وبقيت جماعة من المصريين لا تزال تعطف على العلويين ، ولكنها تكتم ذلك وتتحين الفرص للثورة نستنبط ذلك من الخبر التالى الذى يرويه ابن الأثير . لما أقام عبد الله بن طاهر بمصر واليا عليها من قبل المأمون عام ٢١١ هـ ، ذكر المعتصم للمأمون : « ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد على بن أبى طالب ، وكذا كان أبوه قبله ، فأنكر المأمون ذلك . فعاوده أخوه . فوضع المأمون رجلا ، قال له : « امش فى هيئة القراء والنساك الى مصر فادع جماعة من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ثم صر الى عبد الله بن طاهر فادعه اليه ، واذكر له مناقبه ورغبه فيه ، وابحث عن باطنه ، وأتنى بما تسمع » . ففعل الرجل ذلك ، فاستجاب له جماعة من أعيانه . فقعد بباب عبد الله بن طاهر ، فلما ركب قام اليه فأعطاه رقعة . فلما عاد الى منزله أحضره . قال : « قد فهمت ما فى رقعتك ، فهات ما عندك » . فقال : « ولى أمانك ؟» قال : « نعم » . فدعاه الى القاسم وذكر فضله وزهده وعلمه . فقال عبد الله : « أتنصفنى ؟ » قال : « نعم » . قال « هل يجب شكر الله على العباد ؟ » قال : نعم . قال : « فتجىء الى ، وأنا فى هذه الحال لى خاتم فى المشرق جائز، وخاتم فى المغرب جائز ، وفيما بينهما أمرى مطاع ، ثم ما التفت عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى الا رأيت نعمة

لرجل أنعمها علي ، ومنة ختم بها رقبتي ، وبدا لائحة بيضاء ابتدأني بها تفضلا وكرما ـ تدعوني الى أن أكفر بهـذه النعم وهذا الاحسان ٠٠ تراك لو دعوتني الى الجنة عيانا أكان الله يجب علي أن أغدر به وأكفر احسانه وأنكث بيعته ؟ » فسكت الرجل ، فقال له عبد الله : « ما أخاف عليه الا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ، فان السلطان الأعظم ان بلغه ذلك كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك» فلما أيس منه جاء الى المأمون فأخبره ، فاستبشر وقال : « ذلك غرس يدي » ٠

وفي عام ٢٣٥ هـ كان العلويون قد كثروا بمصر ، حتى ان المتوكل لما غضب عليهم وأراد التنكيل بهم ،أرسل الى والي مصر اسحاق بن يحيى يأمره باخراجهم من مصر الى العراق ٠ ولكن الوالي تلطف بهم ، فأعطى كل رجل منهم ثلاثين دينارا ، وكل امرأة خمسة عشر دينارا ، لينفقوا منها على رحلتهم ، وفرق عليهم الثياب ، فخرجوا من الفسطاط يوم الاثنين لعشر خلون من رجب سنة ٢٣٦ ، فقدموا العراق ، فأمروا بالخروج الى المدينة في شوال ٠ وسخط الخليفة على الوالي لرفقه بهم ، فعزله بعد مدة يسيرة وفي المدينة منع المتوكل العلويين من التعرض لمسألة الناس ، ومنع الناس من البر بهم حتى كان القميص يتداول بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد أخرى ، ثم يرفعنه ٠ الى أن قتل المتوكل فعطف المنتصر عليهم وأحسن اليهم ٠

وفى ولاية يزيد بن عبد الله التركى على مصر (٢٤٢ــ ٢٥٣) لقى العلويون فنونا من الاضطهاد • وبدأ بالغلاة منهم المعروفين بالرافضة ، فتتبعهم وامتحنهم وعاقبهم وأبادهم ، وقمع أكابرهم ، وحمل جماعة منهم الى العراق على أقبح وجه •

ولما تولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ ــ ٢٤٨) أرسل كتابا الى يزيد التركى ألا تسند قبالة أية ضيعة الى علوى ولا يؤذن له بركوب فرس ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، ويمنع من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ، وان كانت بينه وبين أحد خصومة قبل قول خصمه دون أن يطالب ببينة • وكان من أثر هذا أن ثار محمد بن على بن الحسين فى شعبان ٢٤٨ هـ • والتف حوله جماعة من المصريين وبايعوه • ولكن أمره لم يتم ، اذ استطاع يزيد التركى أن يهزمه ويقبض عليه • فاعترف بجرمه وببعض أسماء شركائه • فأخذوا وضربوا بالسياط وأخرج هو فى جماعة من العلويين الى العراق فى رمضان ثم دأب يزيد التركى على ازعاج العلويين واخراجهم الى العراق الى أن انتهت ولايته •

وفى ولاية أزجور التركى (رمضان ٢٥٤ ــ ذو القعدة ٢٥٤) خرج بغا الاكبر أحمد بن ابراهيم بالصعيد • فبعث اليه أزجور بأربعمائة رجل ، استطاعوا أن يهزموه ، فهرب ، ومات فى هربه •

وفى أوائل عهد أحمد بن طولون خرج أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا المعروف ببغا الأصغر ، بين الاسكندرية وبرقة فى جمادى الأولى ٢٥٥ هـ ، فانضم اليه بعض بنى مدلج ، وهم أعز قبيلة بالاسكندرية · ثم انتقل الى الصعيد ، وكثر أتباعه ، فادعى الخلافة · فوجه اليه ابن طولون جيشا على رأسه بهم بن الحسين · فاقتتلوا ، فانهزم أصحاب بغا وثبت هو ، فتمكن منه بهم فقتله · وقطع رأسه ، وأتى به الى الفسطاط يوم الثلاثاء لاحدى عشرة بقيت من شعبان من السنة نفسها ·

ثم خرج بعده بالصعيد أيضا ابراهيم بن محمد بن يحيى ، المعروف بابن الصوفى العلوى · وفى ذى القعدة ٢٥٥ هـ ، استولى على اسنا ، فنهبها وقتل أهلها ، وعاث فسادا فى نواحيها ، وعم شره البلاد · فأرسل اليه ابن طولون جيشا على رأسه ابن يزداد ، فالتقوا بهو (من مركز نجع حمادى بمديرية قنا الآن) · يوم الاربعاء لخمس خلون من ربيع الاول ٢٥٦ · فانتصر ابن الصوفى وظفر بابن يزداد ، فقطع يديه ورجليه وصلبه · ولما بلغ ذلك ابن طولون أرسل جيشا آخر على قيادته بهم بن الحسين الذى أخمد ثورة بغا ، وضم اليه قائدا آخر · فالتقت الجيوش باخميم يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم ابن الصوفى ، وقتل كثير من رجاله · وفر هو الى الواحات ، تاركا جميع ما كان معه فغنم بهم بن الحسين كل ذلك ، ورجع به الى ابن طولون

فعرفه بما جرى . فخلع عليه خلعا حسانا ، وطوقه بطوق ثقيل من ذهب ، وأجازه وقاد بين يديه خيلا حسانا . فكان بهم اذا ركب فى الأعياد يركب بذلك الطرق .

وأقام ابن الصوفى بالواحات يلم شعثه ويصلح أحواله ويدعو الناس اليه ، فتبعه خلق كثيرون . وفى المحرم من سنة ٢٥٩ هـ ، خرج فى جيشه الى الأشمونين من اقليم أسيوط . فوجه اليه ابن طولون جيشا على رأسه ابن أبى المغيث ، من خمسمائة . ولكنهم لم يقتتلوا ، لأن جيش ابن طولون وجد جيش ابن الصوفى قد رجع الى الصعيد الاعلى ، لقتال أحد الثائرين به ، وهو أبو عبد الرحمن العمرى . فلما التقى العلوى بالعمرى ، كان بينهما قتال شديد ، انتصر فيه العمرى ، وقتل كثير من أنصار العلوى . أما هو فقد ولى منهزما الى أسوان ، فقطع كثيرا من نخلها ، وعاث فيها فسادا . واذ بلغت الاخبار ابن طولون ، طلب الى بهم بن الحسين اتباع ابن الصوفى حيث كان وأرسل اليه مددا جديدا . ولما تتابعت الاحداث على ابن الصوفى ، اضطرب أمره ، ومضى هاربا الى عيذاب وهى آخر بلدة مصرية فى الجنوب على البحر الاحمر . ومنها ركب البحر الى مكة . فلما بلغها سمع به واليها فقبض عليه وحبسه ، ثم أرسله الى ابن طولون . فلما وصل الى مصر ، طيف به وشهر للناس على جمل ، ثم اعتقل مدة . وبعد حين أظهر التوبة ، فأطلق ابن طولون

سراحه وأحسن اليه ، فخرج الى المدينة وأقام بها الى أن مات .

وفى عام ٢٦٠ خرج بالصعيد أيضا أحد أنصار ابن الصوفى العلوى ، وهو أبو الروح سكن ، وكان من بوادى بحيرة الاسكندرية ، تربى بالريف . والتفت حوله طائفة كبيرة ، فقطع الطريق وأخاف سالكيه . فوجه اليه ابن طولون جيشا على راسه يلبق الطرسوسى ، ومعظم أفراده من طرسوس . ولما كان أبو روح من ناشئة الريف ، كان أدرى بطرق الحرب فيه ومكيدة الخصوم من الطرسوسى . فلما اجتمعا للقتال أوقف أصحابه فى أرض كثيرة الشقوق ، كان بها قمح فحصد وبقى من تبنه على الارض ما يستر شقوقها ، وأهل الريف قد ألفوا المشى على مثل هذه الأرض ، ولا عهد لأهل طرسوس بها . فلما التقوا تظاهر أنصار أبى روح بالهزيمة والفرار ، فتبعهم فرسان لبق . فوقعت حوافر خيلهم فى تلك الشقوق فكبت بفرسانها ، وسقط بعضهم على بعض . وهنا كر عليهم صحاب أبى روح ، فقتلوا الساقطين شر قتلة ، وهزموا لباقين أقبح هزيمة . فعاد يلبق الى الفسطاط ، فكان الذى لقى هو وأصحابه من غوغاء البلد وسخريتهم أعظم مما لقوه من الهزيمة .

وأهمل ابن طولون أمر أبى روح مدة ، تقدم فيها الى أن وصل الى الفيوم .فأنفذ اليه ابن طولون جيشا

تحت قيادة ابن جيفويه ، وأمره أن يأخذ على طريق الواحات من ناحيه الصحراء ليملك على أبى روح فم البريه من هناك . ثم أنفذ جيشا آخر ، تحت قيادة شعبة ابن خركام ، وأمره بالمسير اليه مباشرة . وأراد أبو روح أن يكرر حيلته ، ولكن أصحاب شعبة كانوا قد أخذوا حذرهم ، فأطبقوا عليهم وأحاطوا بهم . فلما علم أصحاب أبى روح أن حيلتهم لم تفلح ، ولوا منهزمين ، فرموهم بالسهام ، فقتلوا منهم خلقا وأسروا آخرين . وهرب أبو روح يريد طريق الواحات ، ولا ملجأ له غيره . فوجد الجيش الآخر قد ملك عليه الطريق ،فوقف وراسله بالامان وظن ابن جيفويه أن شعبة لم يلقه ، ولم يحدث قتال ، وأنه وافاه قاصدا طلب الامان راغبا فيه ، فأمنه . ولما بلغ ابن طولون ذلك اغتاظ على ابن جيفويه غيظا عظيما ومنعه من الرجوع الى الفسطاط ، وألزمه سكنى الريف شهورا كثيرة ، عقوبة له على اعطائه الأمان ، وكان قد تم له هلاكه .

وفى سنة ٣٠٠ هـ ، خرج رجل بمدين على الحدود بين مصر وفلسطين ، وزعم أنه من آل أبى طالب . فخرج اليه محمد بن طاهر صاحب الشرط ، فهزمه وأتى به . فطيف به لأربع عشرة خلت من شعبان سنة ثلاث مائة .

وخرج ذكا الاعور والى مصر الى الاسكندرية فى المحرم ٣٠٤ هـ ، ورجع الى الفسطاط فى ربيع الاول .

فبلغه أن جماعة من المصريين اتصلوا سرا بالفاطميين ، الذين أقاموا لهم دولة فى شمال أفريقية ، وراسلوهم يبلغونهم أخبار مصر • فتتبع كل من اتهم بهذه التهمة فقبض على جماعة منهم وسجنهم ، وقطع أيدى قوم وأرجلهم •

وفى شوال من سنة ثلاثين ومائتين ، خرج الامير محمد بن طغج الاخشيد من مصر الى الشام ، واستخلف على الفسطاط أخاه أبا المظفر فى قليل من الجند • وانتهز هذه الفرصة السانحة محمد بن يحيى العلوى المعروف بابن السراج فخرج عليه ومضى الى الصعيد ليجمع الناس حوله ويستطيع منازلة الاخشيديين • ثم انتقل ابن السراج الى الجانب الغربى من وادى النيل عند شرونة ، واستولى على سمسطا ونهبها فى ذى القعدة ، والبلدتان من مديرية بنى سويف الآن • ولكنه أدرك أن الأمر غير متيسر له ، فآثر الابتعاد عن مصر ، ومضى فى طريق المغرب حيث لحق بالفاطميين فى شمال أفريقية •

وفى ربيع الآخر من سنة خمس وثلاثين ومائتين ، أى بعد مضى خمس سنين ، عاد ابن السراج من المغرب الى مصر ، وكان أميرها حينئذ أبا القاسم أنوجور بن الاخشيد فلما بلغه مقدمه ، صده وطلب اليه الخروج من مصر • فمضى الى الرملة من أرض فلسطين وأقام بها الى أن توفى •

وكان الاخشـيديون يدارون العلويين بمصر استرضـاء للفاطميين فى المغرب •

وأخيرا توجت جهود العلويين فى مصر باسـتيلاء الفاطميين عليها ، وانتزاعها من الخلافة العباسية ، واقامة خلافة شيعية بها ، وصلت الى أرقى مدارج الترقى والتحضر وكان لعلويى مصر فضل كبير فى تمهيد الطريق كى يستطيع الفاطميون اقتطاف الثمرة الناضجة •

الفصل الثانى

ثورات الأمويين

بدأت الثورات المصرية الاسلامية بابتداء الفتن فى العـالم الاسلامى ، وكانت بداية عنيفة عارمة شأنها فى غير مصر من أقطار الخـلافة واصطبغت ثورة مصر خاصة بصبغة علوية ، بينما كان هوى غير المصريين من الثائرين فى الزبير بن العوام أو طلحة بن عبيد الله ٠

واذا استطاع الأمويون أن يتغلبوا على العلويين ،وأن يحوزوا الخلافة دونهم ، تيسر لهم أيضا اخماد الثـورة المصرية العلوية فى عنف وتمثيل بالثائرين ، أرعب بقية من يضمر هوى لأبنـاء على ، وجعلهم يهدءون حتى يكاد ينقضى العصر الأموى دون أن تقوم ثورة علوية أخرى لها شأنها ٠

وقد اتضح لنا فى أثناء الفصل السابق أن العلويين فى أوج قوتهم لم يسيطروا على مصر سـيطرة كاملة ،

ويوحدوها تحت راية على بن أبى طالب • اذ وجد بازائهم جماعة قوية كبيرة العدد ، لا ترضى عن الخروج على الخليفة القائم : عثمان بن عفان ، والدعوة الى احلال على بن أبى طالب محله • ولم ترض هذه الجماعة عن مقتل عثمان ولا الانطواء تحت امرة من اعتبرتهم قتلته • فآثرت الابتعاد عن عاصمة البلاد : الفسطاط • وتعرف هذه الجماعة بالعثمانيين ، انتسابا الى عثمان بن عفان •

فقد اعتزل هؤلاء القوم ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن أبى أرطاة ومسلمة ابن مخلد الأنصارى ، محمد بن أبى حذيفة ، الذى استولى على السلطة بمصر باسم على ، وبعثوا رسولا الى عثمان ليخبره بأمرهم وبصنيع ابن أبى حذيفة • وعندما قتل عثمان كانوا أول من بايع على الطلب بدمه ، ودأبوا على قتال ابن أبى حذيفة حتى تخلصوا منه •

ولما تولى قيس بن سعد الانصارى مصر من قبل على ابن أبى طالب أراد أن يستميل هؤلاء العثمانيين ـ وكانوا مقيمين بخربتار باللين • فتركهم على مذهبهم ، وبعث اليهم أعطياتهم ، وأحسن الى وفدهم اليه وأكرمه • فكره ذلك معاوية بن أبى سفيان ، لأن فيه استتباب الامن فى مصر ، وخضوعها لعلى ، فأراد مكايدة قيس • فقال لأهل الشام : « لا تسبوا قيسا ، ولا تدعوا الى غزوه ، فان قيسا لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته ، ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا ! يجرى عليهم

أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم » • وكتب بذلك الى شيعته من أهل العراق أيضا • فسمع جواسيس على هذا الكلام فأنهوه اليه • وحثه أصحابه على أن يأمر قيسا بقتال العثمانيين فى خربتا ، وكانوا قريبا من عشرة آلاف • فأمر على قيسا بذلك ، فأبى قيس وكتب اليه : « انهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ • وقد رضوا منى بأن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم • وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون من الذى أفعل بهم ، وهم أسود العرب » • فأبى عليه الا قتالهم ، فأبى قيس وكتب اليه : « ان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى » • فعزله •

ولما ولى على محمد بن أبى بكر الصديق ، نصحه قيس بن سعد فقال له : « دع معاوية بن حديج ومسلمة ابن مخلد وبسر بن أبى أرطأة ومن ضوى اليهم لا تكفهم عن رأيهم ، فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم ، وان تخلفوا عنك فلا تطلبهم » • فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس فاشتعلت الحرب التى رأيناها انتهت بمقتله ، واستيلاء معاوية على مصر ، وتحول الحزب العثمانى الى حزب أموى •

وكثر أنصار الحزب الأموى بمرور الوقت ، اذ انضم الى هؤلاء الأمويين بالهوى أمويون بالنسب ، من أبناء الأمويين الذين ولوا امرة مصر • وأهم هؤلاء أبناء عبد العزيز

ابن مروان الذين تناسلوا بمصر وتكاثروا • وبلغوا في أواخر الدولة الأموية الى درجة أن خالف بعضهم بعضا • ففي عام ١٣٢ هـ خرج عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على آخر خليفة أموى مروان بن محمد ، ودعا لنفسه • فتابعه الدماحس بن عبد العزى في جمع من قيس ، ونزلوا الحوف الشرقي وأظهروا العصيان • فبعث اليهم والى مصر جيشا في سبعة آلاف • فالتقوا ببلبيس، ولكنهم لم يتحاربوا، وانما طلب أصحاب عمرو الصلح على أن يخرجوه هو والدماحس الى أى أرض شاءا • فقبل قائد جيش الوالى الصلح بهذه الشروط وانفضوا • ثم ظفروا بعمرو فحبس في الفسطاط ، الى أن قدم الخليفة مروان بن محمد مصر فارا أمام العباسيين • فجعله معه في حله وترحاله وهو مقيد • فلما قتل مروان ، هرب عمرو بن سهيل •

ولما سيطر العباسيون على الامور في مصر بعد مقتل مروان ، قتلوا كثيرا من الأمويين المقيمين بمصر • ولم ينجح منهم الا بعض من كان يواليهم منهم ، ومن فر الى الصعيد أو المغرب أو الأندلس • فضعفت شوكة الأمويين كثيرا ، حتى لقد رأيناهم ينضمون الى أعدائهم الأقدمين : العلويين ، لاتفاق مصالحهم ضد العباسيين ، فالتف دحية بن المعصب ومنصور الاشل بن الأصبغ الأمويان الى على بن محمد العلوى الثائر بمصر عام ١٤٥هـ وكانا من أشد المحرضين له ، غير أن ثورته أخفقت •

وفي ولاية ابراهيم بن صالح (١٦٥ ـ ١٦٧) .

خرج دحيــة بن المعصب بن الأصبغ بن عبـد العزيز بن مروان بالصعيد ، ومنع الخراج ، ودعا الى نفسه بالخلافة .
وتراخى ابراهيم بن صالح عنه استهانة بأمره ، فاستفحل شأنه وملك عـامة الصعيد . فسخط الخليفة المهدى على ابراهيم وعزله عزلا قبيحا ، وولى مكانه موسى بن مصعب الخثعمى . وأعد موسى جيشا من خمسة آلاف ، تحت قيادة عبـد الرحمن بن موسى بن على اللخمى . وبعث به الى الصعيد للقضـاء على ثورة دحيـة ، التى استفاضت فى الجانب الشرقى من وادى النيل فى الصعيد . وذهب هو على رأس بقية جند مصر كلهم ، للقضـاء على ثورة أهل الحـوف الشرقى . ولكن أهل الحوف اتفقوا مـع جند الفسطاط ، الذين كانوا يكرهون الخثعمى ، على الانهزام عنه ، وتركه وحيدا فى أثنـاء القتـال . والتقى الجنود بالغريراء من الحوف ، فنفذ جند الفسطاط الاتفاق . فبقى الخثعمى فى طائفة صغيرة ممن كان قـدم بهم وأفراد من المصريين . ومن الطبيعى أن الثوار استطاعوا القضاء عليه وجماعته ، وقتله ، على حين عاد جند الفسطاط الى العاصمة دون أن يصاب منهم أحد .

وفى تلك الأثناء كان الجيش الذى أرسله الى الصعيد مشتبكا فى قتال عنيف مع جند دحية دون جدوى . فقد لجأ هذا الى المراوغة ، اذ ترك بعض جنـده فى الضـفة الشرقية من النيل ، تحت قيادة يوسف بن نصير التجيبى ، واجتاز هو الى الجانب الغربى وحاز أكثره . ولم يستطع

اللخمى قائد الوالى أن يواجه الجيش الذى تركه دحية فى حرب حاسمة ، فطلب من الوالى أن يعفيه ، وأقام مقامه بكار بن عمرو المعافرى ·

وولى مصر عسامة بن عمرو المعافرى ، فكتب دحية الى قائده التجيبى يأمره بالمسير الى الفسطاط للاستيلاء عليها · فالتقى جيشه مع جيش الوالى فى بركوت من مديرية الجيزة ، فتحاربوا يومهم كله · ثم دعا التجيبى الى المبارزة ، قائلا « قد ترى ما الذى قتل بيننا من الناس· ابرز الى وأبرز اليك ، فأيناقتل صاحبه كان الفتح له »· فتبارز القائدان ، فوضع كل منهما رمحه فى خاصرة الآخر، فقتله · فانفصل الجيشان ورجعا مهزومين ، وكان ذلك فى الثالث من ذى الحجة ١٦٨ هـ ·

وولى الخليفة المهدى والياجديدا ، هو الفضل بن صالح · فقدم مصر فى آخر المحرم ١٦٩ هـ فى جيوش عظيمة من أهل الشام ، للقضاء على ثورة دحية · وعبأ الجيوش وأرسلها فى البر والنيل · فالتقت فى بويط من مركز البدارى بمديرية أسيوط · ونشب بينهم قتال عنيف قتل فيه قائد دحية ، فتقهقر أصحابه · وفر هو مع جماعة من جنده الى الواحات ، وكان أهلها يعتنقون مذهب الخوارج · فتظاهر دحية بأنه على مذهبهم ، فأيدوه ونصروه على ما جاء فى أثره من جيوش الوالى · ولكنهم سرعان ما تبينوا أمره ، وأنه ليس من أهل مذهبهم ،

فانفضوا من حوله وانتهز عبد الله بن علي الجنبى • قائد جيش الوالى ، الفرصة ، وكر عليه • فاشتبكوا فى قتال مرير ، أسهم فيه رجال بنى أمية ونساؤها ، وخاصة « نعم » زوجة دحية ، حتى قال شاعرهم :

فلا ترجعى يا نعم عن جيش ظالم
يقود جيـــوش الظـــالمين ويجنب

وكرى بنا طردا على كل سابح
اليـنـــا منايا الـــكافرين يقرب

كيــوم لنــا لازلت أذكر يومنــا
بفــاو ، ويوم فى بويط عصبصب

ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه
على فيئة الفضل بن صالح تنعب

ولكن جيش الوالى استطاع أن يهزم دحية ويفرق أتباعه ، ويقضى على خلافته ، فقضى بذلك على أكبر ثورة قام بها الأمويون فى مصر • اذ لا نعود نسمع عنهم فيهـــا بعد دحية • ويبدو أن ما صبه عليهم العباسيون فى مبدأ خلافتهم ، ثم بعد ثورة دحية ، من تقتيل وتعذيب وتشريد ذهب بقوتهم فى مصر ، ولم يترك منهم الا بقية لا شـــأن لها •

ويتضح لنا من هذه الأخبار التى وصلت الينا عن الأمويين ، أنهم كانوا أقوياء كثيرى العدد ، وأنهم اشتركوا

فى ثــورات دامية عنيفـــة فى مطلع الدولتين الاموية والعباسية ، وكانوا فى المعـارك الأولى يثأرون لدم عثمان ويمهدون لاقامة خلافة أموية ، وفى الثـــورات الاخيرة يثأرون لخلافتهم المنهارة ويحاولون تقويض دعائم الخلافة العباسية القائمة ، واقامة خلافة أموية مصرية .

الفصل الثالث

ثورات الخوارج

كانت الفتنة الكبرى ، التى عاصرت مقتل عثمان ابن عفان ، سببا فى ظهور حزب ثالث فى المشرق ، هو أعنف حزب اسلامى : حزب الخوارج • فقد دأب الخوارج طوال العهد الأموى وشطرا من العباسى ، على القيام بالثورات الجامحة المدمرة ، التى استماتوا في القتال فيها ، وكادوا فى بعض الأحيان يذهبون بالدولة الأموية •

ولم تكن مصر بمعزل عن هذا الحزب العنيف ، بل ظهر فيها جماعات تدين بآرائه وتعتنق تعاليمه • وأول ما نسمع بهم فى مصر فى فتنة عبد الله بن الزبير ، ويبدو أنهم دخلوها مع أنصار ابن الزبير • فالكندى يقول : « توفى يزيد بن معاوية سنة أربع وستين ، ودعا ابن الزبير الى نفسه • فقامت الخوارج الذين بمصر فى أمره وأظهروا دعوته ، وكانوا يحسبونه على مذهبهم •

ووفدوا منهم وفدا اليه ، وسألوه أن يبعث اليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه .. وبعث ابن الزبير اليهـــا بعبد الرحمن بن جحـدم الفهرى ، فقـدمها فى طائفة من الخوارج » .ويقول ابن تغرى بردى عن ولاية ابن جحدم :
« وليها من قبل عبد الله بن الزبير بن العوام ، لما بويع بالخــلافة فى مكة ، وبايعه المصريون ، وتوجه اليه منهم جماعة كثيرة وبايعوه ... ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج ، وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر، ودعوا الناس لبيعته ، فتابعهم الناس والجند على مـا فى قلوبهم من الحب فى الباطن لبنى أمية » . ولعل التعليل الذى يوضح هذه العبارات أن الخوارج كانوا قليلين بمصر ولكن الذين دخلوا مع ابن جحدم كانوا كثيرين ظاهرين .

وبويع مروان بن الحكم خليفة فى دمشق ، فدعـــاه الأمويون الى المسير الى مصر لانتزاعها من ابن الزبير. فسار على رأس جيش وأرسل ابنه عبد العزيز على رأس جيش آخر لغزوها . فأشار أنصار ابن جحدم عليه أن يحفر خندقا حول الفسطاط لحمايتها ، فحفره فى شهر . قال ابن أبى زمزمة :

وما الجد الا مثـل جد ابن جحدم
وما العزم الا عزمه يوم خنـدق

ثلاثون ألفا هم أثاروا ترابــه
وخدوه فى شهر ، حديث مصدق

وأرسل ابن جحدم أسطولا بحريا لمهاجمة الشام ، وجيشا بريا تحت قيادة السائب بن هشام العامرى لمقابلة مروان ، وآخر لصد ابنه عبد العزيز • ولكن الحظ السيء حالف هذه الجيوش • فالأسطول هبت عليه عاصفة عنيفة أغرقت بعض سفنه وأرغمت بعضها الآخر على العودة الى مصر • وجيش السائب رجع بدون قتال ، لأن مروان نمى اليه أن للسائب ابنا رضيعا بفلسطين ، فأخذه • فلما التقى بالسائب ، أبرز اليه الطفل فقال : « أتعرف هذا يا سائب ؟ » قال : « هذا ابنى » قال : « نعم ، فوالله لئن لم ترجع عودك على بدئك لأرمينك برأسه » • فرجع السائب بجيشه دون قتال ، فسمي جيشه جيش الكرارين• والجيش الثالث قابل عبد العزيز بن مروان ببصاق ـ وهى سطح عقبة أيلة ـ فاقتتلوا فانهزم •

وسار مروان حتى نزل عين شمس ، فخرج اليه ابن جحدم ، فتحاربوا يوما أو يومين ، ثم رجع وراء خندقه وظل القتال سجالا بينهما مدة ، يخرج ابن جحدم جماعة يقاتلون ثم يرجعون ويخرج غيرهم وهلم جرا • فقتل كثير من أهل القبائل من أهل مصر ومن أهل الشام أيضا • ولما ملوا القتال تفاوضوا فى الصلح ، على أن يأخذ مروان مصر ، ولا يتعرض لابن جحدم • وتم الصلح ، فدخل مروان مصر فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ولما استقر مروان بمصر قتل جماعة من أنصار ابن جحدم ، منهم ثمانون رجلا من المعافر ، دعاهم الى أن يبايعوا له ، فأبوا وقالوا : « انا

قد بايعنا ابن الزبير طائعين فلم نكن لننكث بيعته » ·
فقدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم ·

وفى عام ٩١ هـ خرج قرة بن شريك والى مصر الى الاسكندرية ، فتعاقدت الشراة بها (وهم الخوارج) على الفتك به · وكان عددهم نحو مائة رجل من رؤساؤهم من بنى تجيب · ولكن رجلا يكنى أبا سليمان سمعهم يتآمرون فوشى بهم عند قرة · فقبض عليهم فى الموضع الذى يجتمعون فيه للتآمر ، وهو أصل منارة الاسكندرية · وحبسهم هناك وأحضر رؤساء جنده ، فسألهم أمامهم · فأقروا فقتلهم · ومضى رجل خارجى المذهب الى أبى سليمان ـ الذى وشى بهم ـ فقتله ·

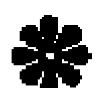
وفى سنة ١١٧ خرج وهيب اليحصبى من خوارج مصر الوافدين من اليمن ، على واليها الوليد بن رفاعة لسماحه للنصارى بابتناء كنيسة · وأتى اليه ليفتك به ، ولكنه أخذ وقتل · فجعلت امرأة وهيب تطوف بالليل على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدمه ، فخرجوا على الوالى · واقتتل الفريقان بجزيرة الروضة ، ولكن الوالى ـ فيما يبدو ـ استطاع اخماد الفتنة ·

وفى ولاية الحوثرة بن سهيل الباهلى (١٢٨ ـ ١٣١) أرسل عبد الله بن يحيى طالب الحق الخارجى الذى ثار باليمن واستولى عليه وعلى الحجاز ، داعية له الى مصر فأجابه نفر من بنى تجيب ، وبايعوا له · ولكن الحوثرة فطن اليهم فاستخرجهم وقتلهم ·

وندرك مما حدث لدحية بن المعصب فى الكلام عن الحزب الاموى ، أن الخوارج كانوا مسيطرين على الواحات فالكندى يقول فى وصف التجاء دحية اليهم : « مضى دحية على حامية ، فى طائفة معه ، الى طريق الواحات . فبعث الى أهلها يدعوهم الى القيام معه ، وكانوا .. يتدينـــون بالشراية ، فقالوا : لا نقاتل الا مع أهل دعوتنا . فبعث اليهم دحية : « انا على مذهبكم » . فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير .. ووجد أهل الواحات على دحية فى اثارته العرب على الموالى وتقديمهم على البربر ، فقالوا له : هذا ظلم ! والاسلام واحد . ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمـان ، فامتنع دحيـــة وقال لهم : والله ما أرجو الجنة الا بالرحم بينى وبين عثمان . فانصرفوا عنه وتركوه » فكان فى ذلك القضاء عليه .

وتبين لنا الأخبار السابقة أن العلويين المصريين لم ينشقوا الى شيعة وخوارج كما حدث فى العراق ، وانما استمروا على هواهـــم العلوى . ولم يظهر بين المصريين كثيرون ممن يرون رأى الخوارج ولكن ما ان قام عبد الله ابن الزبير بثـورته ، التى اعتمد فيهـا بعض الوقت على تأييد الخــوارج ، حتى دخلت جمـاعة كبيرة منهم مصر لضمها الى سيطرة ابن الزبير . وكان ذلك أول عهـــد المصريين بنفوذ الخوارج . فلما قضى الامويون على ثــورة الزبيريين والخوارج بمصر ، ووليها عبد العزيز بن مروان مدة طويلة ، وأطلقت يده فى تصريف شئونها ، استطاع

أن يوطد دعائم الحزب الأموى ، وأن يجتث بذور الخوارج فاضطروا الى الانزواء فى البقاع المصرية النائية كالواحات حيث يبدو أنهم عاشوا حياة مستقلة عن الحكم الاموى ، ودون أن يسمع أحد لهم أخبـــارا . أما من بقى منهم فى المدن المصرية فقلة ضئيلة ، وفى بنى تجيب من قبـــائل الوجه البحرى خاصة . وتبين لنا أيضاً أن الصلة كانت وطيدة بين خوارج مصر واليمن خاصة .



ولم تر مصر أحزابا على شيء من القـوة غير الاحزاب الثلاثة الماضية . أما الزبيريون والعباسيون فلميكونوا ذوى نفوذ بمصر . فقد رأينا الأولين يســــتعينون بالخوارج للاستيلاء على مصر . وبالرغم من ذلك لم يســــتطيعوا الاحتفاظ بها طويلا .

وظهرت آثار الحزب العبـــاسى عندمـا اختلت أمور الدولة الأموية بانهــــزام مروان بن محمد أمام جيوش العباسيين وفراره من بلد الى بلد . فلبس السواد شارة العباسيين أهل الحـــوف الشرقى بدعوة من شرحبيل بن مذبلفة الكلبى ، وأهل الاسكندرية بدعوة من الاســـود ابن نافع الفهرى ، وأهـل الصعيد بدعوة من عبد الأعلى ابن سعيد الجيشانى ، وأهل أسوان بدعوة من يحيى بن مسلم . كذلك عزم جند مصر على منع مروان ان ســـار اليهم . فلما استطاع مروان دخـول مصر تثـاقلوا عنه

ولكنه بعث جيشا الى الاسكندرية هزم الاسود بن نافع ، وآخر الى الصعيد هزم الجيشانى • وبرغم ذلك لم يهنأ مروان بهذه الانتصارات ، لأن جيوش العباسيين دخلت مصر وهزمته وقتلته ، وضمت مصر الى الخلافة العباسية•

❋

وجملة القول أن المصريين شاركوا المشـــارقة فى نشاطهم الجزبى ، وأن هذا النشاط بدأ فى مصر معاصرا لبدئه فى المشرق ، ولكن المصريين عرفـــوا حزبين اثنين قويين ، هما الحزب العلوى والحزب الأموى • أما الحزب الخارجى فلا أخبار كثيرة لدينا عنه ، فهو مجهول ، وان أمكن القول بأنه بسط نفوذه على البقاع المصرية النائية واستقل بها • ويمكن القول أيضـا بأن المعلومات القليلة التى وصلت الينـــا من مصدر واحد ــ هو كتـاب الولاة والقضــــاة للكندى ــ تمكننا من القول بأن ثورات عنيفة قام بهـــا هذان الحزبان المصريان ، ثورات لا تقل عنفا عن ثورات المشـــارقة • ولعـــل أخوات لهـا قـــام بها المصريون ، ولم يذكرها الكندى ، أو أشار اليها فيما أشار اليه دون أن يفصل القول فيه • ويدلنا ذلك على أن مصر لم تنعزل عن النشاط السياسى فى غيرها من بلاد المشرق وأن الأحداث الكبرى التى كانت تقع بهذه الأقطار ، كانت تجد صداها سريعا فى مصر •

الفصل الرابع

الثورات الاقتصادية

حافظ المصريون على اتصالهم بالمشارقة واستجابوا لما قاموا به من أحداث ، وكان لكل ما يقع بالمشرق صداه فى مصر • فما ان يظهر حزب فى خارج مصر حتى يظهر مثيل له فى داخلها ، وما ان تهب ثورة كبيرة فى العراق أو الحجاز أو الشام حتى يكون لها وقعها وآثارها فى حياة المصريين • فحياة المصريين لم تكن بالمنفصلة عن حياة المسلمين فى الأمصار الاسلامية الأخرى •

ولكن هذه الحياة ـ الى جانب اتصالها بالحياة الاسلامية عامة ـ كان لها جوانبها الخاصة ، كان لها ما رضيت به ، وما سخطت عليه ، وما أملت أن تبلغه • فكانت هذه الجوانب الخاصة مدعاة الى رضا المصريين أحيانا والى سخطهم أخرى • وانعكست أحاسيسهم تلك

على حياتهم السياسية · فقاموا فى بعض الأحيان بثورات ليست صدى لثورات خارجية ، ولا موحى بهـا من حزب من الأحـزاب التى قامت فى مصر وغـيرها من أقطـار الاسلام ·

ولاترجع هذه الثورات الى سبب واحد ، بل ترجع الى أسـباب عدة · ولذلك نحتاج الى أن نصـنفها وفقا للدوافع التى أهابت بالمصريين أن يضطلعوا بها · وأن فعلنا ذلك رأينا أكثر هذه الثورات قام لعوامل اقتصادية متنوعة ؛ ورأينا بعضها قام به أفراد ذوو طموح ، حيث أغرتهم مصر وقوتها وغناها على السيطرة عليها ، ورأينا بعضا قام به القبط لأسباب مختلفة ، ثم رأينا عدة ثورات لم تذكر المراجع التاريخية أسبابها · ولعل الأمر الطبيعى أن نبتدىء بالثورات الاقتصادية ، لأنها الأكثرية العظمى، حتى اننا نظن أن أكثر الثورات المجهولة الأسباب كانت لعوامل اقتصادية ·

ولا تذكر المراجع التى بين أيدينا شيئا من هـذا اللون من الثورات فى المائة السنة الأولى من الهجرة ، ولكننا لانكاد نسير قليلا فى المائة الثانية حتى نواجه أولى الثورات · ففى سنة ١٠٧ هـ كتب صاحب الخراج الى الخليفة هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فى خراجها ، فزاد على كل دينار قيراطا · فقـامت الفتن والثورات فى الحوف الشرقى وحول الفسطاط ، وكان أكثر القـائمين

بها من القبط بطبيعة الحال ، لأنهم أصحاب الأراضى الخراجية • ولم يستطع الوالى اخماد هذه الثورات الا بعد سفك كثير من الدماء •

ولما ولى حفص بن الوليد (١٢٤ ـ ١٢٧) زاد فى أرزاق الجند وفرض لهم فروضا جديدة سخية • فلما ولى حسان بن عتاهية عام ١٢٧ هـ ، أسقط هذه الفروض والزيادات • فوثب عليه الجند وقالوا : « لا نرضى الا بحفص » • وركبوا الى المسجد ودعوا الى خلع الخليفة مروان بن محمد ، وحصروا حسان فى داره ، ثم أخرجوه من مصر هو وصاحب الخراج • ثم أخرجوا حفصا من السجن وولوه مصر • واتصلوا ببعض الثائرين فى فلسطين لتوحيد كلمتهم •

ومضى حسان الى مروان وذكر له ما وقع له مع أهل مصر • وفى تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبى من افريقية ونزل الجيزة • فكتب الخليفة مروان الى أهل مصر : « أما اذ أبيتم ولاية حسان فقد أمرت عليكم حنظلة ابن صفوان » • فامتنع المصريون من ولايته وأظهروا خلع الخليفة • ومضى جيشهم فمنع حنظلة من دخول الفسطاط وأخرجه الى الحوف الشرقى ، وحاربوه فهزم • وحينما رأى الخليفة ذلك سكت عنهم بقية سنة ١٢٧ على مضض •

وفى السنة التالية عزل الخليفة حفصا عن مصر وأرسل حوثرة بين سهيل الباهلى أميرا عليها • فجاء فى

جيش عظيم . واجتمع جند مصر الى حفص وسألوه أن يتولى قيادتهم ، ويخالف أمر الخليفة ، ويصد حوثرة ، فأبى عليهم . وحينئذ رأى أهل مصر أن يراسلوا حوثرة ويسألوه أن يؤمنهم ، والا ناصبوه القتال . فأجابهم الى ما سألوا وكتب لهم كتابا بعهد وأمان فاطمأنوا اليه . ثم بعث اليهم حوثرة يستأذنهم فى المسير اليهم ودخول مصر فأذنوا له . فسار حتى نزل المسناة وبعث اليهم : «ان كنتم فى الطاعة فالقونى فى الأردية » أى بدون عدة للحرب . وبالرغم من ريبة بعضهم ، أرادوا أن يظهروا تصديقهم اياه، فخرج اليه حفص ووجوه الجند حتى دخلوا عليه فسطاطه، فقيدهم . وبعث حوثرة الفرسان فى طلب رؤساء الفتنة ، فقبضوا عليهم كلهم أو عامتهم فضرب أعناقهم .

وفى سنة ١٦٧ ولى مصر موسى بن مصعب الخثعمى، فتشدد فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ماكان عليه أولا، وجعل خراجا على أهل الأسواق وعلى الدواب، ولقى الناس منه شدائد ، وارتشى فى الأحكام . فكرهه الجند وشغبوا عليه ، وثارت قيس واليمانية بالحوف الشرقى وتحالفوا فيما بينهم عليه . وكاتبوا أهل الفسطاط من الجند يرغبونهم عنه ، فتعهدوا لهم أن ينهزموا عنه اذا خرج لقتالهم . وعندما التقوا بالغريراء ونشبت الحرب فعلا ، تفرق عنه جنده من أهل الفسطاط . فبقى فى طائفة قليلة ، فأطبق عليه أهل الحوف وقتلوه فى شوال ١٦٨ هـ. ولم تنطفىء نيران هذه الثورة الا حين أتى الوالى الجديد

الفضل بن صالح العباسي جرارة معه من المشرق ·

وفى سنة ١٧٣ ولى عمر بن غيلان خراج مصر فشدد على الناس وعلى أهل الخـراج ، وأخر أعطيات الجند · فنفرت منه القلوب ، وثار عليه الجند ، وحصروه فى داره · ثم أخرجوه وصلبوه ودخنوا عليه حتى دفع اليهم أعطياتهم · ويبدو أن الوالى خاف الفتنة ، فلم يدافع عنه · فلما بلغ الخليفة هارون الرشيد الخبر هاله الأمر ، فعزل الوالى · وأرسل إبراهيم بن صـــالح لاخراج الفرق التى اشتركت فى الفتنة من الجند من مصر · فأخرجهم من الفسطاط الى المغرب والمشرق ، وسير منهم جماعة فى البحر الى الشام ، فظفرت بهم الروم فأسرتهم ·

وفى ولاية اسحاق بن سـليمان (١٧٧ ـ ١٧٨) زاد الوالى الخراج على الزارعين زيادة أجحفت بهم · فخرج عليه أهل الحوف واستعدوا لقتاله · فأرسل اليهم جيشا فهزموه وقتلوا قائده · فكتب الوالى الى هارون الرشـيد يخبره بذلك · فغضب وأرسل جيشا عظيما تحت قيادة هرثمـة بن أعين · فلمـــا رأى أهل الحوف ألا قبل لهم بجيشه ، طلبوا الصلح وأدوا الخراج ·

وفى ولاية الليث بن الفضل ، أراد الليث أن يزيد الخراج ، فبعث مساحا يمسحون الاراضى المزروعة ، وأمرهم بأن ينتقصوا القصبة أصـــابع · فتظلم الناس اليـه فلم يسمع منهم · فثار أهل الحوف واستعدوا للقتال وتقدموا نحو الفسطاط · فخرج اليهم الليث بن الفضل فى أربعة

آلاف من جند مصر فی ۲۸ شعبان ١٨٦ هـ · فالتقوا فی أرض جب عميرة ، فانهزم الجند عن الليث ، وبقی هو فی نحو المئتين من أصحابه فحمل بهم على أهل الحوف حملة صادقة هزمهم فيها · فتولوا وتبع أقفيتهم فقتل منهم خلقا كثيرا ، وبعث الى الفسطاط ثمانين رأسا ·

ورجع الليث الى الفسطاط · ورجع أهل الحوف الى منازلهم ومنعوا خراجهم · فخرج الليث الى هارون الرشيد فی المحرم من عام ١٨٧ هـ · وعرفه الحال ، وشكاله من منع الخراج ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش ، فانه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش · فتصدى له محفوظ بن سليمان وضمن للرشيد أن يجبی الخراج عن آخره بلا سوط ولا عصا · فولاه الرشيد الخراج ، وعزل الليث عن امرة مصر ·

وفی ولاية الحسين بن جميل (١٩٠ ــ ١٩٢) ، تشدد الوالی فی الخراج · فخرج عليه أهل الحوف الشرقی وامتنعوا من أداء الخراج · وخرج عليه أيضا أبو النداء البلوي بأيلة فی نحو ألف رجل · فقطع الطريق وأخاف السبل · وتوجه من أيلة الى مدين ، وأغار على بعض قرى الشام · ثم انضم اليه من جذام وغيرها جماعة كبيرة ، وبلغوا مبلغا عظيما من النهب والسلب والقتل · فلما بلغ الرشيد أمره ، جهز اليه جيشا من بغداد لقتاله · وبعث الحسين بن جميل جيشا آخر ، فالتقى الجيش المصرى بأبی النداء وصحبه بأيلة ، واقتتلوا فانتصر جيش الوالی ،

وهزم أبو النداء وأسر . وعند ذلك وصل جيش الخليفة الى بلبيس فى شوال ١٩١ هـ . فلما رأى أهل الحـوف أن أبا النداء قد أسر . وعند ذلك وصل جيش الخليفـة الى بلبيس فى شوال ١٩١ هـ ، فلما رأى أهل الحوف أن أبا النداء قد أسر ، وأن جيش الخليفة صار فى ديارهم ، أذعنوا بالطاعة وأدوا الخراج .

وعزل الخليفة الحسين بن جميل وولى مكانه مالك ابن دلهم الكلبى . وأمر الخليفة قائد جيشه الذى أرسله من بغداد بالعودة من مصر . فكتب القائد الى أهل الحوف يطلب اليهم القدوم الى الفسـطاط ليتوسـط بينهم وبين الوالى الجديد فى الخراج ويوصيه بهم . فجاءه رؤساؤهم ودخلوا داره . وكان قد أعد لهم القيود . فأمر بالأبواب فأغلقت ودعا بالحديد فقيدهم ، وخرج بهم فى رجب ١٩٢ هجرية .

ولما ولى الحسن بن التختاخ مصر ، وتوفى الرشيد ، وتولى المأمون ، وزع هذا الوالى العطاء ثلثا عينا ، وثلثـا بزا ، وثلثا قمحـا ، فوقعت فتنة ، واصـطدم أهل مصر بالجند ، وقتل جماعة من الفريقين . ثم لما جمع الخراج أرسله الى عاصمة الخلافة . فلما صارت الأموال بفلسطين، خرج عليها أهل الرملة ، وقالوا : « هذا عطاؤنا قد ساقه الله الينا » . فأخـذوا من ذلك المال عطاءهـم ثم أدخلوا الباقى منه بيت المال .

ولما ولى حاتم بن هرثمة مصر ١٩٤ هـ ، قدم فى ألف

رجل ، ونزل ببلبيس ، فصـالحه أهل الحوف على أداء الخراج • ولكنهم مالبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه واجتمعوا على قتاله • فبعث اليهم جيشا قاتلهم وأخمـد ثورتهم • وانتقل حاتم من بلبيس الى الفسطاط فى شوال ١٩٤ ، ومعه مائه من الرهائن من أهل الحوف •

وولى المعتصم (وكان واليا لمصر فى عهد أخيه المأمون) صالح بن شيرزاد الخراج ، فظلم الناس وزاد الخـراج وعسف • فانتقض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا على قتاله • فبعث عيسى بن يزيد الجلودى والى مصر ابنه فى جيش لنصرة صـاحب الخراج • فلقيـه أهل الحوف فى بلبيس فى صفر ٢١٤ هـ ، فهزموه وقتلوا أصـحابه ، ونجا هو هاربا • فلما بلغ الخبر المعتصم عظم عليه وعزل الوالى ، وولى عوضه عمير بن الوليـد التميمى • فاستعد عمير للحرب ، وأراد التفريق بين القيسية واليمنية من أهل الحـوف ، فأرسـل الى القيسية عبد الله بن حليس الهلالى ليردهم الى الطاعة ويبعدهم عن اليمنيين • ولـكن ابن حليس انضم اليهم وزادهم تحريضا على الوالى ، حتى جعلوه رئيسا عليهم • فسـار اليهم عمير فى جيوشـه ، وتبعه جيش آخر على رأسـه عيسى الجلودى • وأرسـل المأمون رجلين : أحدهما للقيسية ، والثـانى لليمنية ، ينصحانهم ويرغبانهم • فلم ينههم ذلك عن الحرب ،وزحفوا الى عمير • فالتقوا بمنية مال الله فكانت بينهم وقعة هائلة • وقتل من أهـــل الحوف جماعة فتظاهروا بالفرار ، فتبعهم

عمير في نفر من أصحابه • فعطف عليه كمين لأهل الحوف، فقتلوه •

وولى مصر عيسى بن يزيد الجلودى ثانية • فتقابل هو وأهل الحوف الذين كان قد كثر عددهم بعد انتصارهم السابق بمنية مطر (مطرية عن شمس) فكانت بينهم وقعة • ثم انصرف أهل الحوف على حامية ، ومضى الجلودى حتى نزل نويرة فخندق على نفسه • وأقام أياما ، فأتاه أهل الحوف فى جمع هائل انزل الرعب فى فؤاده • فبقى الى أن غطاه الليل ، ففر منهزما الى الفسطاط ، بعد أن أحرق كل ما ثقل من متاعه ، فى رجب ٢١٤ هـ •

وبلغ المأمون ذلك فعظم عليه الأمر ، فطلب أخاه المعتصم ـ وكان شجاعا مقداما ـ وندبه للخروج الى مصر• فخرج من بغداد فى أربعة آلاف من أتراكه ، وسافر حتىقدم مصر فى أيام يسيرة ، وعيسى الجلودى كالمحصور • فلميشعر أهل الحوف الا بنزوله بين أظهرهم • فراسلهم ودعاهم الى الطاعة فامتنعوا• فقاتلهم فى شعبان ٢١٤ هـ ، فقاتلهم، وقتل أكابرهم ، ووضع السيف فى القيسية واليمانية حتى أفناهم •

ونصب المعتصم عبدويه بن جبلة واليا على مصر ، ثم غادرها • فما لبث أن خرج عليه بالحوفبنو لخم وجماعة من القيسية واليمانية فى شعبان ٢١٥ هـ فتهيأ عبدويه لمحاربتهم وجهز اليهم جيشا فسار اليهم وحاربهم وظفر بهم بعد معارك •

ثم ثار الوجه البحرى كله: حوفاه الشرقى والغربى، وعربه وقبطه ، على الوالى الجديد عيسى بن منصور فى جمادى الأول ٢١٦ • وأخرج الثائرون العمال وأعلنوا العصيان • فجاء الأفشين قائد الخليفة فى جيش من برقة فى منتصف جمادى الآخرة لاخماد الثورة ، ولكنه لم يستطيع بسبب الفيضان • وبعد الفيضان خرج هو وعيسى ابن منصور لقتالهم ، فالتقيا مع جماعة منهم باشليم (من مركز قويسنا بمديرية المنوفية) فهزماهم وأسرا منهم كثيرا فقتلاهم • ورجع عيسى بن منصور الى الفسطاط ، ومضى الأفشين الى الحوف لاخضاع أهله • وثارت الاسكندرية على واليها وحصره بنو مدلج فى حصنها فى شوال ٢١٦ هـ • فمضى الافشين الى شرقيون فلقى من هناك بمحلة أبى الهيثم ، فاقتتلوا ، وكان النصر من نصيب الافشين • ثم مضى الى دميرة (من مركز طلخا بمديرية الغربية) فحارب أهله فى ذى القعدة وهزمهم • وأقبل الافشين فى جنوده الى الاسكندرية ، فلقيته طائفة من بنى مدلج بخربتا فهزمهم • ثم واجهوه بمحلة الخلفاء فهزمهم وأسر أكثرهم ، فقتلهم بقرطسا من دمنهور • ثم أتى الاسكندرية فاستطاع أن يدخلها فى ذى الحجة • وبعد أن استقرت أحوالها مضى الى أهل البشرود (الساحل الشمالى للدلتا) فواقف أهلها مدة •

وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط الى ما حولها من بلاد ثائرة ، فقاتل أهلها ، وهزمهم • ولكن الحروب

بقيت مستمرة سجالا • فاضطر المأمون أن يقدم بنفسه فى المحرم ٢١٧ هـ • فعزل عيسى بن منصور وجهز الجنود لاخماد الثورات الناشبة فى كل مكان • فأرسل جيشا الى الصعيد ، قاتل الثائرين بطحا وتغلب عليهم • وأرسل آخر الى البشرود ، انضم الى الأفشين ، وأوقع الهزيمة بالقبط هناك • واستطاع بعد عدة معارك أن يعيد الهدوء الى جميع الارجاء المضطربة •

وعندما تولى المعتصم الخلافة ، أرسل الى كيدر بن عبد الله والى مصر يأمره باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع العطاء عنهم • ففصل كيدر ذلك • فخرج يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام ، وقال : لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيأنا • فأجابه نحو خمس مائة رجل • فتجهز كيدر لحربهم . ولكنه توفى قبل ذلك فى ربيع الآخر ٢١٩ هـ ، وولى بعده ابنه مظفر • فتهيأ لقتال الجروى وحشد الجند والعساكر • وخرج من الفسطاط وتقدم حتى التقيا فى بحيرة تنيس (المنزلة الآن) • فحدثت بينهما موقعة هائلة انكسر فيها الجروى وأسر ، وتفرق أصحابه ، فى جمادى الأولى •

ولكن الفتن والاضطرابات استمرت فى الشطر الأول من ولاية موسى بن أبى العباس (٢١٩ ــ ٢٢٤) • وخاصة فى الحوف الشرقى • ثم سكنت الشرور والفتن بآخر أيامه •

وانتظمت أحوال مصر الاقتصادية أيام الطولونيين ، فهدأت البلاد ، وعدمت الثورات الاقتصادية . ولكن ما ان سقطت دولة الطولونيين حتى استعرت الفتن من جديد . ظهر ذلك أيام الخليجى الذى دعا بدعوتهم وحكم مصر شهورا قلائل ، وفي عهد سلفه عيسى النوشرى . فقد توفى في عهده الخليفة المكتفى وبويع المقتدر . فشغب بعض جند مصر على النوشرى ، وطلبوا منه مال البيعة للمقتدر ، وحاربوه . فظفر بهم وأخرجهم من مصر .

وفى سنة ٣١٠ شغب الجند على هلال بن بدر والى مصر فى أرزاقهم ، وخرجوا الى منية الاصبغ . وانضم اليهم جماعات من المشاة والفرسان ورجال البحرية والمصريين المدنيين . فلما بلغ هلالا أمرهم تهيأ وتجهز لقتالهم . فجمع من بقى من جند مصر ، وطلب المقاتلة ، وأنفق عليهم الأموال ، وضمهم اليه . ثم خرج بهم وحواشيه الى أن وافى الثوار وقاتلهم أياما عديدة . وطال الأمر فيما بينه وبينهم ، ووقع له معهم حروب ، وكثر القتل والنهب بينهم ، وفشا الفساد ، وقطع الطريق . وضعف هلال عن اصلاح أحوال مصر ، فصار كلما سد أمرا انخرق عليه آخر ، فكانت أيامه على مصر شر أيام . ولما تفاقم الخطب عزله الخليفة بالأمير أحمد بن كيغلغ سنة ٣١١ هـ .

فاقبل ابن كيغلغ ومعه محمد بن الحسين الماذرائى على الخراج . فنزلا منية الاصبغ ، فأحضرا الجند ، ووضعا

العطاء ، وأسقطا كثيرا من المشاة • فشغبوا عليهما ، ففر ابن كيغلغ الى فاقوس ، وعـزم الماذرائى على التـوجه الى الشام ، فخرج اليه الجند وأبقوه فى الفسطاط •

واستمر الاضطراب الى أن اضطر الخليفة الى تنصيب تكين واليـا على مصر ، وكان كارها لولايتـه ، استرضاء للجند ، ومخافة أن ينتهز الفاطميون فى المغرب الفرصة ويستولوا على مصر • فلما استقرت امرته ، أسقط كثيرا من الجند الذين كان أثبتهم هلال بن بدر ، ونادى فيهم ببراءة الذمة ممن أقام منهم بمصر • فخرجوا جميعا وقد عقدوا العزم على قتله • ولكن تكين كان على علم بنيتهم ، فتهيأ لقتالهم أيضا وجمع عساكره • فلم يستطع الجند أن ينالوا منه مرامهم •

وفى ٣٢١ هـ ثار الجند على محمد بن على الماذرائى ــ وكان قائما بأمر مصر كله ــ فى طلب أرزاقهم وأحرقوا دوره ودور أهله • ووقعت فتنة عظيمة وحروب قتل فيها جماعة كبيرة من المصريين • ودامت الفتنة الى أن قدم محمد ابن تكين الى مصر فى جمـــادى الاولى ٣٢٢ هـ • فظهـر الماذرائى وأنكر ولاية ابن تكين على مصر • فتعصب لمحمد جماعة من المصريين ودعى له بالامارة على المنابر • وانقسم الناس فرقتين : فرقة تنكر ولاية ابن تكين وتثبت ولاية ابن كيغلغ ، وأخرى تتعصب لابن تكين وتنكر ولاية ابن كيغلغ • ووقع بسبب ذلك فتن وحروب بالوجه البحرى

والصعيد ، الى أن أقبل ابن كيغلغ ونزل بمنية الاصبغ • فلحق به كثير من أصحاب ابن تكين فقوى أمره بهم • فلما رأى ابن تكين أمره فى ادبار ، فر ليلا من الفسطاط ودخلها ابن كيغلغ • ولكنه لم يهنأ بهنا ، اذ عاد اليه ابن تكين ثانية ، واشتبكا فى نزاع حربى كان له النصر الأخير فيه • ومالبث أن عزل وولى مصر محمد بن طغج الأخشيد ، الذى أسس الدولة الاخشيدية ، فهدأت اضطرابات مصر الاقتصادية ، وسكنت أحوالها ، وازدهرت أمورها •

ويتضح مما سبق أن مصر بقيت هادئه طوال العصر الأموى ، فلم تعرف الاضطرابات ولا الثورات الاقتصادية ، ولكن ما ان أظلهـا العهد العباسى حتى كثرت الثورات وتعددت وخطر أثرها ، فلم يكن يمر عام أو عامان حتى تقوم ثورة سببها زيادة الخراج أو منع العطاء أو التحايل فى استخراج أموال الأهالى ، أو فرض ضرائب جديدة ، وتلاحقت الثورات الاقتصادية الكبيرة • ولم تسترح مصر من هذا اللون من الثورات الا فى عهود الاستقلال تحت ظل الطولونيين ثم الاخشيديين • وقام ببعضهذه الثورات الجند دون أن يتدخل المدنيون ، وتدخلوا فى بعضها بعد أن بدأها الجند • واشترك فى بعضها الآخر المسلمون والأقباط ، وخاصة الثورات التى قامت بسبب فرض ضرائب جديدة أو بسبب زيادة الخراج •

الفصل الخامس

الثورات القبطية

اشتهر بين دارسى التاريخ المصرى أن المصريين كانوا يكرهون الرومان البيزنطيين ، وأنهم أو كثيرا منهم رحب بالغزو الاسلامى أو ارتاح له · فقد كان البيزنطيون من أتباع المذهب الملكانى من مذاهب المسيحية ، وكان المصريون من أتباع المذهب اليعقوبى · وأراد الأولون أن يفرضوا مذهبهم على رعاياهم جميعا ، على حين أصر المصريون على مذهبهم وأبوا التحول عنه مهما لاقوا من وجوه الاغراء أو صنوف التعذيب ·

وهذه صورة تصور حال المصريين فى تلك الأيام ، وهرقـــل امبراطور على البيزنطيين ، والمقـــوقس بطريرك ملكانى على مصر ، وبنيامين بطريرك يعقوبى هارب من كرسيه فى الاســكندرية ومشرد فى بقاع مصر النائية ،

ويقدم هذه الصورة أحد أساقفة الكنيسة القبطية : ساويرس بن المقفع ، فى كتابه سير البيعة المقدسة . قال ، مع غض النظر عن لغته العربية السقيمة :

« وعظم البلايا والضيق الذى أنزلهم على الأرثدكسيين وغواهم لكى يدخلوا معه فى أمانته حتى ضل جماعة لا يحصى عددها ، قوم بالعذاب ، وقوم بالهدايا والتشرف ، وقوم بالسؤال ، حتى ان قيرس أسقف بنيقيوس وبقطر أسقف الفيوم وكثير خالفوا الأمانة المستقيمة الأرثدكسية ، ولم يسمعوا قول الأب المغبوط بنيامين فيختفوا مثل غيرهم فصادهم بصنارة ضلالته ، وضلوا بالمجمع الطمث الخلقدونى .

« ثم ان هرقل ظفر بالأب المغبوط مينا أخى الأب بنيامين . فأنزل عليه بلايا عظيمة ، وأطلق المشاعل بالنار فى أجنابه حتى خرج شحم كلاه من جنبيه وسال على الأرض ، وقلعت أضراسه وأسنانه باللكم على الاعتراف المستقيم . وأمر أن يملأ مزواد رمل ، ويجعل القديس مينا فيه . وأخرج أكثر من سبع غلوات ، وأنزل فى الماء ثلاث دفعات .. وغرقوه .

« ثم انه أقام أساقفة فى بلاد مصر كلها الى أنصنا . وكان يبلى أهل مصر بأمور صعبة ، وكان كشبه الديب الخاطف يأكل القطيع ولا يشبع .

«وفى تلك الايام نظر هرقل مناما: وكان من يقول له: ان أمة تأتى عليك مختونة وتغلبك وتملك الأرض ، فظن أنهم اليهود ، فأمر أن يتعمدوا جميع اليهود والسمرة فى جميع الكور الذى سلطانه عليهم • وبعد أيام يسيرة ثار واحد اسمه محمد ، فرد عباد الأوثان من العربان الى معرفة الله : أنه واحد ، وأن يشهدوا ويقولوا : ان محمدا رسوله • وكانت أمة مختونة بالجسد ، غلف القلوب ، ولهم ناموس يصلوا قبلى شرقى الى موضع يسمى الكعبة • وملك محمد هذا وصحبه دمشق والشام وعبر الأردن وبين النهرين •• وكان الرب يخذل جنس الروم قدامه لأجل أمانتهم الفاسدة •

« فكم مات من الناس فى التعب الذى كانوا يقاسوه لما تمت العشرة سنين من مملكة المقوقس وهرقل ، وهو يطلب الرسولى الأب بنيامين ، وهو هارب بين يديه من مكان الى مكان ، وهو فى البيع المخفية •

« فأنفذ ملك المسلمين لما ذكروه أصحابه بحال الاب البطريرك بنيامين : أميرا ومعه سرية الى أرض مصر ، اسم ذلك الأمير عمرو بن العاص ، فى سنة ثلاث مائة وسبعة وخمسين لدقلطيانوس ، فى اليوم الثانى عشرين من بؤونة• ونزل عسكر الاسلام الىمصر بقوة عظيمة ومقدمه عمرو الامير ابن العاص ، وهدم الحصن ، وأحرق المراكب بالنار ، وأذل الروم ، وملك بعض الكورة • وكانت أمته محبة للبرية ، فأخذوا الجبل الى أن وصلوا الى قصر مبنى حجارة بين الصعيد

والريف يسمى بابلون • فضربوا خيامهم هناك لكى يترتبوا لملاقاة الروم ومحاربتهم •• وبعد قتالهم ثلاث دفعات غلبوا المسلمون •

فلما نظروا رؤساء المدينة هذه الامور مضوا الى عمرو ابن العاص الامير ، وأخذوا منه أمانا على المدينة لكيلا تنهب• ولذلك مسكوا أيديهم عن الكور ، وأهلـــكوا عسكر الروم وبطريقهم المسمى أريانوس • ومن سلم منهم هرب •

فأما سانوتيوس المؤمن المسيحي فعرف عمرا بسبب الأب المعروف بنيامين ، وأنه هارب خوفا من الروم • فكتب الى أعمال مصر ، يقول : « الموضع الذى فيه بنيامين رئيس النصارى ، له الهـــدى والأمان والسلام من الله ، فيحضر ويدبر حال بيعته » • فلما سمع هذه الاخبـار الشـجاع بالحقيقة عاد الى الاسكندرية بفرح بعد ثلاث عشرة سنة ، منهـا عشرة لهرقل ، وثلاث سنين للمسلمين قبل فتـحهم الاسكندرية ، لابس لاكليل الصبر وعظم الجهاد الذى كان• فلما ظهر للشعب فرحوا جميع المدينة، وعرفوا سانوتيوس التكس الذى قاله لهم ، وقرر مـع الأمير احضاره ، فمضى وعرف الامير عمرا بوصوله • فأمر باحضاره بكرامة ومحبة• فلما نظر اليه التفت الى مقدميه ، وقال لهم : «ان فى الكور التى ملكناها الى الآن لم أشاهد رجلا لله يشبه هذا الرجل»• وكان منظره حسن جدا • ثم التفت اليه وقال له : « جميع بيعك ورجالك اضبطهم ، واذا ما صليت على حتى أمضى الى الغرب والخمس مدن ، وأملـــكها مثل مصر ، وأعود اليك

بسرعة ، وكل ما تطلبه منى أفعله لك » •• ثم انصرف من عنده مكرما •

ولما جلس هـذا الروحانى الأب المعترف بنيامين على بيعته بنعمة الرب يسوع المسيح دفعة أخرى ، جذب اليه أكثر من خجلهم (جعلهم) هرقل مخالفين ، وكان يعيدهم بسكينة ووعـظ ويعزيهم • وكثـــير ممن هرب الى الغرب والخمس مدن من ذلك الكافر ، لماسمعوا عادوا ونالوا اكليل الاعتراف • وكذلك الاساقفة الذين خالفوا دعاهم ليعودوا الى الامانة الارثدكسية ، فمنهم من عاد بدموع غزيرة، ومنهم من خاف من فضيحة الناس فأقام على كفره الى أن مات •

وبعد ذلك ســار عمرو من الاســكندرية وعسكره ، وعدى معه المقـــدم سانوتيوس المحب للمسيح •• وكانت أعمال الارثدكسيين تنمو يوما فيـــوم • وكانت الشعوب فرحين مثل العجـــايل الصغار اذا أطلقوا من الرباط على ألبانهم • فلما دخل عمرو الى مصر وخرج منهـــا ومضى الى الغرب ، أدركته معونة عظيمة » •

نقلت هذا النص من التاريخ الرسمى للكنيسة القبطية المصرية لدلالته على عدة أشياء : فظاعة اضطهاد البيزنطيين للمصريين حتى وصفهم الاخيرون بالضلال وفساد الامانة بل والكفر ، وتمنوا التخلص من نيرهم حتى قصوا الرؤى المبشرة بقدوم المسلمين لتحريرهم ، ووصف المسلمين بمحبة الناس جميعا ، وعدم نهبهم القرى ، ثم الفرح الذى عم القبط بعودة

بطريقهم ، ومنحه السلطة ، حتى استطاع أن يعيد من اضطر الى الانحراف ، وما تلا ذلك من غبطة ومرح ، وأخيرا ملازمة بعض الاقباط لجيش المسلمين واعانتهم معونة عظيمة .

ويكفيني هذا النص مئونة اللجوء الى نصوص أخرى ذكرها رجال من المسيحيين المصريين وغير المصريين ، وتصرح بأشياء مما يتصل بما فى النص السابق . ولكنى أورد هنا أقوالا من مصدر اسلامى قديم تؤيد الاقوال السابقة . قال المؤرخ المصرى ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر والمغرب، ويعتبر أقدم كتاب مصرى يعالج التاريخ المصرى الاسلامى :

« فخرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والاسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم .. ثم فتح الله للمسلمين ، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة ، واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية . فتحصن بها الروم ، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام ، حصن دون حصن . فنزل المسلمون ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ، ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا اليه من الاطعمة والعلوفة » .

طبيعى بعد هذا كله أن يرضى أقباط مصر عن الحكم الجديد ، وأن يرضى عنهم ، وخاصة أن المسلمين لم يتدخلوا فى الامور الدينية للقبط ، وتركوا التنظيم المالى على ما كان عليه أيام الرومان ، بل كان جل المشرفين عليه ان لم يكن كلهم من القبط ، ويجرى باللغتين القبطية واليونانية .

وبقى هذا الرضا القرن الهجرى الاول كله • ولكن ما ان بدأ القرن الثانى حتى بدأت سلسلة متصلة من الثورات التى قام بها الاقباط وحدهم أحيانا ، واشترك معهم العرب فى بعضها الآخر • وأكثر هذه الثورات بسبب الخراج ، لا بسبب الشعور الوطنى أو الدينى •

ففى عام ١٠٧ هـ ، أراد عبيد الله بن الحبحاب ، صاحب خراج مصر ، أن يتقرب الى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فكتب اليه ان أرض مصر تحتمل الزيادة فى الخراج ، وزاد فعلا على كل دينار قيراطا • فثار أهل تنو وتمى وقربيط وطرابية ، وعامة الحوف الشرقى • فبعث اليهم والى مصر بجيش كبير حاربهم ، وقتل منهم بشرا كثيرا • وكان ذلك أول انتقاض القبط بمصر •

وفى عام ١٢١ هـ ، ثار القبط على عمالهم وحاربوهم، فأرسل اليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان ، فقتلوا منهم ناسا كثيرا ، وظفروا بهم •

وفى عام ١٣٢ هـ ، خرج رجل من القبط يسمى يحنس بسمنود ، وجمع حوله جيشا عزم على أن يقاتل به أمير مصر عبد الملك بن مروان • فبعث اليه الامير جيشا استطاع أن يهزمه ويقتله فى جمع كبير من أصحابه •

وفى السنة نفسها ، ثار القبط برشيد على الخليفة مروان بن محمد ، وكان قد دخل مصر فارا من العباسيين• فأرسل اليهم جيشا تمكن من اخماد ثورتهم •

وفى عام ١٣٥ هـ ، ثار القبط بسمنود ، تحت زعامة أبومينا ، فبعث اليهم الوالى جيشا حاربهم وقتلهم وأخمد ثورتهم ٠

وفى عام ١٥٠ هـ ، ثار القبط بسخا ، ونابذوا عمالهم وطردوهم ٠ ثم ساروا الى شبرا سنباط ، وانضم اليهم أهل البشرود ، والأوسية ، والبجوم ٠ فأتى الخبر يزيد بن حاتم المهلبى أمير مصر ٠ فعبأ جيشا كثيفا من أهل الديوان وبعثه لمقاتلتهم ٠ فبيتهم القبط وأخذوهم على غرة ، فهزموهم ، وقتلوا بعض كبرائهم ٠ فاضطر الباقون الى القاء النار فى عسكر القبط لشغلهم عنهم ٠ فلما فعلوا ، انصرف الجيش المهزوم الى الفسطاط ٠ واذ وصلت الأنباء مسامع الخليفة ، هاله الأمر وعزل أمير مصر ، وولى مكانه موسى بن على بن رباح ٠

وقضى الوالى الجديد على الثورة ، ولكن الاقباط قاموا بثورة جديدة ٠ فى عام ١٥٦ بمدينة بلهيب ٠ فأرسل هذا الوالى الجند اليهم ، فتمكنوا من اخماد الثورة ، وقتلوا جماعة من القائمين بها ، وعفوا عن جماعة ٠

وهدأت أحوال القبط مدة طويلة الى عام ٢١٦ ، حيث قامت الثورة الكبيرة فى مصر ٠ فقد عاث عمال أمير مصر عيسى بن منصور فسادا فى أرجاء مصر ٠ فثار أهل الوجه البحرى جميعا : مسلمون وأقباط ، فى جمادى الأولى ٠ وأعلنوا العصيان وطردوا العمال ٠ وحشد المصريون

وجمعوا ، فكثر عددهم ، وساروا لمقاتلة أميرهم • فتجهز عيسى ، وجمـــع العساكر والجند ، ثم هابهم وضعف عن لقائهم وتقهقر بمن معه • فازداد المصريون حماسة، وتقدموا الى الفسطاط ، وأخرجوا عيسى منها ، وطردوه هو وصاحب الخراج على أقبح وجه •

ولما بلغت الأنباء الخليفة المأمون ، أمر قائده الأفشين ـ وكان فى برقة حينئذ ـ أن يهــاجم المصريين من الغرب • فأتى فى جمادى الآخرة ، وأقام بالفسطاط لأن فيضان النيل اذ ذاك حال بينه وبين قتال المصريين • ثم خرج لشن الحرب فى شوال ، وانضم اليه عيسى بن منصور الأمير المطرود ، فكثر عددهم واستعدوا أحسن الاستعداد للقتال • وبدءوا بمقاتلة أهل تنو وتمى ، وكانوا مجتمعين بأشليم، فهزموهم وأسروا منهم كثيرا ، فقتلهم الافشين • وعنــد ذلك طلب الافشين الى عيسى أن يرجــع الى الفسطاط ليضبط أمورها وأمور بقية مصر • ومضى هو الى أهـــل الحوف ، فقاتلهم وبدد جمعهم ، وأسر منهم جماعة كبيرة •

ومضى الافشين الى شرقيون من المحلة الكبرى ، فلقى الثائرين بمحلة أبى الهيثم • فاقتتلوا فظفر الافشين وقتل قائد الثوار • ثم مضى الى دميرة فقاتل أهلها فى ذى القعدة وظفر بهم • وفى هذه الأثناء ، خرج عيسى بن منصور الى أهل تمى وهزمهم •

ومضى الأفشين الى الاسكندرية ، فلقى طائفة من بنى مدلج بخربتا ، فحـــاربهم وهزمهم • ثم لقى طائفة أخرى

بمحلة الخلفاء ، فهزمهم وأسر أكثرهم ، ثم ضرب أعناقهم • وأخيرا استطاع دخول الاسكندرية فى ذى الحجة •

وبعد فتح الاسكندرية ، خرج لقتال أهل البشرود أو البشموريين ، فلم يستطع أن يتغلب عليهم • وبقيت الحروب سجالا ، لأن المنطقة التى يسكنونها ، وهى الطرف الشمالى من الدلتا ، كثيرة المياه والغياض والمستنقعات والوحول ، ولا يعرف طرقها الا أهلها • وحاول البطريرك أن يتوسط بين الطرفين ويعيد الهدوء الى نصابه • قال ساويرس بن المقفع فى تاريخه :

« ولما نظر أبونا البطرك أنبا يوساب ، حزن على أولئك الضعفاء لأنهم لا يقدرون على مقـــاومة السلطان ، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم • فبدأ المهتم بخلاص شعبه الامين بالحقيقة ، وكتب اليهم كتبا مملوءة خوفا ، ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقـــاومة السلطان ، فلم يرجعوا • فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم • وكان يكتب اليهم فصولا من الكتب ، ويقول : « قال لسان العطر بولس: كل من يقاوم السلطان فهو مقاوم حدود الله ، والذى يقاومه يدان » • ولما وصلتهم كتب البطرك مع أساقفته ، نظروا أولئـــك الاشرار الآباء الأساقفة ، ووثبوا عليهم ونهبوا كل ما معهم وأهانوهم • فعادوا الى البطرك وعرفوه ما جرى عليهم • فقال : «مايبطىء عن هؤلاء الهـــلاك بل يتم عليهم ما قاله النبى اشعيا : انى

أسلمكم للسيف ويقع جميعكم بالقتـل لأنى ناديتـكم فلم تسمعوا كلامى ، وخالفتم وفعلتم الشر أمامى » .

ولما تحقق الافشين من تصميمهم على القتـال ، وعدم قدرته على النصر السريـع عليهم ، طلب العون من الخليفة المأمون . فأتى بنفسه على رأس جيش كبير . ثم أخذ يبعث البعوث الى أرجاء القطر المصرى لاخماد الثورات القائمة فى كل مكان . فاستطاع الجيش الذى اتجـه الى الصعيد أن يهزم الثائرين بطحا . وخرج المأمون نفسه على رأس جيش أعاد الهدوء الى سخا . وأرسل الامداد الى الافشين . ولكنه أراد أن يأخذ البشموريين بالحسنى أولا ، وكان قد أتى معه ببطريرك أنطاكية ليحاول أن يهدئهم ، مستعينا ببطريرك مصر .

قال ساويرس يصف التقاء البطريركين ومحاولتهما :

« فلما علم الألب البطرك أنبا يوساب بوصول المأمون ، وصحبته بطرك أنطاكية ، جمع الاساقفة ، وسار الى فسطاط مصر ليسلم عليه كمـا يجب للمـلوك .. ثم عرفه أنبا ديونوسيوس أن أبانا لم يتـأخر عن مكاتبة البشموريين واردعهم وأن لا يقاوموا أمرك . ففرح المأمون بهذا الامر . ثم قال للبطرك أنبـا يوساب : « هوذا أمرك أنت ورفيقك البطرك ديونوسيوس أن تمضيا الى هؤلاء القوم وتردعوهما كما يجب فى ناموسكما ليرجعوا عن خلافهم ويطيعوا أمرى، فان أجابوا فأنا أفعل معهم الخير فى كل ما يطلبوه منى ، وان تمادوا على الخلاف فنحن بريئين من دماهم » ، ففعل

آباؤنا البطركان • وساروا الى البشموريين وسألاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلوا عن أفعالهم • فلم يجيبوا ولا قبلوا سؤالهم • فعادوا وأعلما المأمون بذلك » •

فلما اتصل الخبر بالمأمون ، سار بجيشه وانحدر الى هناك ، وأمر أن يحشدوا جميع من يعرف طرق البشموريين من أهل المدن والقرى المجاورة لهم • ودأب على مهاجمتهم بكل قواه ، والاستماتة فى حربهم ، حتى ظفر بهم وأخمد ثورتهم •

وأراد المأمون أن يرهب المصريين ، ويبعد عنهم كل تفكير فى ثورة ، فقسا أشد القسوة على الثائرين • فقد حكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال معتبرا اياهم غنيمة حربية ، وتتبع كل من يومأ اليه بخلاف من المسلمين أيضا فقتله • ووصف ساويرس عمل المأمون بقوله : «فهلكوهم وقتلوهم بالسيف بغير اهمال ونهبوهم ، وأخربوا مساكنهم وأحرقوها بالنار ، وهدم بيعهم • وتم عليهم قول داود النبى فى المزمور ٧٧ : أسلم قوتهم للسبى ، ومالهم لأعدائهم ، وأسلم شعبه السيف ، ولم يشفق على ميراثه • ولما أن نظر المأمون كثرة القتلى ، أمر العسكر أن يرفع السيف • والذى بقى منهم أسره الى مدينته بغداد من الرجال والنساء » •

وعلى هذه الصورة الأليمة انتهت هذه الثورة العارمة التى شملت مصر كلها • وبانتهائها انتهت ثورات القبط فى

مصر ، ولم نعد نسمع عن ثورات أخرى لهم • ويحسن بى قبل أن أنتقل من هذه الصفحة أن أورد ما قاله ساويرس فى وصف المأمون وأسباب الثورة ، قال : « كان متولى الخراج فى ذلك الزمان رجلين ، أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط ، والآخر ابراهيم بن تميم، هذين مع ماكانوا الناس عليه من البلايا لا يدعو طلب الخراج بغير رحمة ، وكانوا الناس في ضيق زايد لا يحصى ، وأصعب ماعليهم مايطلبوه منهم متوليين الخراج ، وطلب مالا يقدروا عليه • وبعد هذا أنزل الله الكريم بأحكامه الحق غلا عظيما على كورة مصر ، حتى ان القمح بلغ خمس ويبات بدينار ، ومات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان، ومن جميع الناس مالا يحصى عدد من شدة الجوع •• وكان المأمون رجلا حكيما فى فعله ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكماء يفسروا له كتبنا ، وبهذا الحكم كان محب للنصارى •• فسأل الأب البطرك أنباديونوسيوس : أى شيء كان السبب فى نفاق (ثورة) هؤلاء القوم ؟ فعرفوه أنه بسبب ظلم متولى الخراج لهم أولا فتوجع قلبه على هلاكهم• وتقدم الى المأمون وقال له لمنزلته عنده •• السبب فى نفاقهم ظلم متوليين الخراج لهم » •

يتضح من العرض السابق أن القبط حافظوا على هدوئهم طيلة القرن الهجرى الاول ، ولكن تلاحقت ثوراتهم فى القرن الثانى ، ثم اندلعت ثورتهم الكبرى فى القرن الثالث ، وأن معظم الثورات التى وصلتنا أخبارها كانت فى

الوجه البحرى ، وأنها قامت لأسباب مالية لا دينية ، حتى ان المسلمين شاركوهم فى بعضها ، وفى ثورتهم الكبـرى خاصة ، وأنها شاركت الثورات الاقتصادية فترات نشاطها وهدوئها • وخير مانختتم به هذا العرض قول المؤرخ الفرنسى ويت Wiet ان هذه الثورات هى فتن وانتقاضات أكثر منها ثورات حقة ، وانها لم تجد من التنظيم والتدعيم مايكفل لها النجاح ، ولم تكن لها دلالة اقليمية تحتـوى على بذور وحدة وطنية معارضة لسلطان العرب والمسلمين •

الفصل السادس

الثورات المجهولة الأسباب

اندلعت بمصر ثورات أخرى خاصة بها ، لم يذكر لها المؤرخون أسبابا ، فجهلنا لونهـا ، ويغلب على الظن أن الدوافع التى جعلت المصريين يضطلعون بهـا اقتصادية • وليس بين أيدينا أوصاف مفصلة لأغلب هذه الثورات ، وانما مجرد اشارات مقتضبة موجزة لا تعـدو التلميح • ولذلك يقتصر عملى هنا على ايراد قائمة بهذه الثورات ، مع الاخبار القليلة المتصلة بها •

قال صاحب النـجوم الزاهرة عن سالم بن سوادة التميمى ، الذى ولى مصر عام ١٦٤ هـ : « وفى أيامه كانت حروب كثيرة بمصر وبلاد المغرب » •

وقال عن مسلمة بن يحيى ، الذى ولى مصر ١٧٢هـ : « وكانت أيامه مع قصرها كثيرة الفتن ، ووقع له أمور مع

أهل الحوف ، ثم أخرج العساكر لحفظ البحيرة من الفتن التي كانت بالمغرب » •

وقال عن عبد الله بن المسيب ، الذى وليها بين سنتى ١٧٦ ، ١٧٧ هـ : « وفى أيام ولايته على مصر مع قصرها وقع له حروب مع أهل الحوف » •

وقال عن عبيد الله بن المهدى ، الذى وليها بين سنتى ١٨٠ و ١٨١ هـ : « فلم تطل مدته على مصر ووقع له بها أمور حتى صرف عنها » •

وفى عام ٢١٥ هـ ، ثار بنو لخم بالحوف، وانضم اليهم جماعة من القيسية واليمانية • فجهز اليهم أمير مصر جيشا سار اليهم وحاربهم ، فظفر بهم بعد حروب •

ولما خلع الخليفة المستعين وبويع المعتز عام ٢٥٢هـ ، كان لهـذا صداه فى مصر • فقد ثار بنومدلج قريبا من الاسكندرية ، تحت زعامة جابر بن الوليد • فأرسل اليه أمير الاسكندرية جيشا مؤلفا من ثلاث مائة رجل • فالتقوا بمدينة صا ، فحالف النصر جابرا ، وتقهقر جيش أمير الاسكندرية منهزما • ولكن جابرا تعقبهم وحاربهم بجنبويه وانتصر عليهم أيضا • وأرسل قائد جيش الامير يطلب المدد فأتاه جيش آخر • والتقت الجيوش بدسونس ، واقتتلت قتالا شديدا ، رجحت فيه كفة جابر • فانتصر وغنم جميع ما فى معسكر أمير الاسكندرية ، ورجع الجند المهزوم الى

الاسكندرية . فخاف أميرها على نفسه وتحصن بهـا ، ولم يخرج لملاقاة الثائرين .

أما جابر فقوى جانبه ، وأتاه الناس من كل ناحية ، وضوى اليه كل من عرف بشدة ونجدة ، وتابعه المسلمون والنصـــارى . وأرسل واليا من قبله على سنهـور وسخا وشرقيون وبنا ، فمضى فى جيش عظيم ، ضم هذه النواحى، وطرد عمالها من قبل والى مصر، وجبى خراجها .

وانضم اليه عبد الله بن أحمد العلوى المعروف بابن الأرقـــط ، فجعله على رأس جيش ، وضم اليه كثيرا من الاعراب ووجوه أصحابه. ثم ولاه على بنا وبوصير وسمنود.

وأرسل أمير مصر الجيوش لمقاتلة عمال جابر. فالتقت هذه الجيوش مع ابن الارقط فيما بين بوصير وبنا . واشتد القتال ، واستحر القتـــل فى الفريقين ، غير أنه قتل من أصحاب ابن الارقط مقتلة عظيمة ، وأسر منهم كثير . أما هو فهرب الى شرقيون . ثم التقت الجيوش مرة أخرى ، غير أن أصـــحاب والى جابر اضـطروا الى الهروب ثانية الى شرقيون .

ومضى جيش أمير مصر الى سندفا وضربها بالنـــار ، ونهب أهلها ، بعد أن هزم جيش جابر . ولما رأى جيش جابر انشغال عدوهم بالسلب والنهب ، كروا عليهم وقتلوا منهم كثيرين .

ولما تواترت أنباء الهزائم الى العراق ، أرسل الخليفة جيشا عظيما تحت قيادة مزاحم بين خاقان لمعاونة أمير مصر . وعندما دخل مصر ، أرسل رسلا من أصحابه الى جابر يأمره بالرجوع الى طاعة الخليفة . فأخر جابر الرسل أياما ، ثم أجازهم بجوائز عظيمة وردهم ، دون أن يعطيهم جوابا شافيا .

ومضى أحد جيوش أمير مصر الى والى جابر على شرقيون ، فالتقى معه بسمنود . ودارت رحى الحرب ، فلحقت الهزيمة والى جابر ، واضطر الى الالتجاء الى شرقيون ثم خرج منها الى سندفا . فتبعه جيش أمير مصر اليها وأوقعه بها . فتفرق كثير من أصحابه من حوله ، وآثروا اما الانضمام الى جابر نفسه أو طلب الأمان من جيش والى مصر . وانتهز الجيش الأخير الفرصة فأوقع بخصمه وأسر قائده وكثيرا من رؤسائه فى رمضان سنة ٢٥٢ هـ .

ومضى جيش آخر من جيوش الخليفة العباسى الى صا وشباس ، وقاتل من بهما من أتباع جابر ، وتغلب عليهم ، فقتل جماعة منهم ونفى أخرى .

وتغلب جيش آخر على ابن الأرقط العلوى ، فطلب الأمان ، فأومن . وأرسل به الى مزاحم ثم أخرج الى العراق فى جمع معه مع أخى مزاحم فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٥٣ هـ . ولكنه استطاع الهرب منه فى الطريق . ثم قبض عليه ثانية وأخرج الى العراق فى عام ٢٥٥ هـ .

ومضى مزاحم بن خاقان الى الثائرين بالحوف وأخمد ثورتهم ، وأسر رؤساءهم ومائة من رجالهم .

وسار جيش آخر الى الاسكندرية لمقاتلة جابر نفسه ، وكان مقيما بتروجة . ولكن هذا الجيش لم يشتبك معه في قتال الى أن فرغ مزاحم من الحوف ، وآتى لمحاربة جابر . ودارت رحى الحرب بتروجة ، فكانت الغلبة لمزاحم . وهرب جابر الى نهيا من أرض الجيزة في جمادى الآخرة بعد أن أسر جمع كثير من أصحابه . فخرج اليه جيش من الفسطاط للاجهاز عليه . ولكنه تغلب على هذا الجيش ، وظفر بأربعين رجلا منه . ثم سار الى الفيوم ، وحارب الأعراب بتنهمت ، وقتل كثيرا منهم .

ورجع مزاحم بن خاقان في اثر جابر ، فنزل نهيا بعد مسير جابر منها بأربعة أيام . فاقتفى أثره الى الفيوم ، فالتقى به فيما بين تنهمت وأقنى ، فهزمه وأسر ابن عم له . ورجع جابر الى جنبويه من كوة البدقون ، على حين رجع مزاحم الى الفسطاط في رجب .

وفي آخر الأمر ، وجد جابر ألا قبل له بجيوش الخليفة فطلب الأمان . فآمنه مزاحم هو وستة نفر من قومه . فدخلوا الفسطاط ، فآثر مزاحم أن يسجن جابرا مخافة أن يغتاله الرعاع . ثم بعث به الى العراق في رجب عام ٢٥٤ هـ .

وعلى هذه الصورة انتهت أكبر ثورة في هذه القائمة ، التي يتضح منها أن كثيرا من الثورات المصرية لم

تصل الينا أخبارها • ولعلنا ــ اذا ما هدانا الله الى كتب أخرى من الكتب التى ألفها مصريون فى تاريخ مصر خاصة غير كتاب الكندى ــ واجدون فيها من الأخبار ما يغير كثيرا من معلوماتنا عن تاريخ مصر فى هذا العهد المبكر • فتلك الاشارات المقتضبة من النجوم الزاهرة تنبىء بأن وراءها أحداثا جديرة بالتسجيل ، اذ أن كثيرا من الأمور والأحداث التى أفاض فيها الكندى لم يمنحها ابن تغرى بردى أكثر من اشارات •

الباب الثانى

المقاومة البيضاء

الفصل الأول

الامتناع عن التعاون

ان تركنا الصفحات الحمراء من التاريخ المصرى ، وقلبنا الصفحات البيضاء ، عثرنا على أخبار أخرى ، تعطينا آثاراً من مقاومة المصريين ، لم تصطبغ بالعنف الذى اصطبغت به المقاومة السالفة ، وانما آثرت الهدوء مع الاحرار على الصخب مع الجموح . وقد استخدم المصريون الوانا متعددة من هذه المقاومة البيضاء وأول هذه الألوان وصفه المؤرخون بالامتناع ، وقد تجلى فى عدة مواقف ، وبرز فى كثير من الصور ، كان منها الهادئى جدا ، ومنها ماعنف قليلا ، ومنها ماأدى الى القتال .

فحكى المؤرخون مواقف استقبل فيها المصريون الولاة الذين نصبهم الخلفاء على حكم مصر استقبالا فاترا ولم يقبلوهم ولا اعترفوا بهم. فعلوا ذلك مع الولاة العلويين الذين ثاروا على عثمان بن عفان ، وطردوا واليه ، وأقاموا

انفسهم ولاة باسم على بن طالب . وفعلوه عام ٤٣ هـ على وجه التقريب ، عندما خرج من مصر عتبة بن أبى سفيان واليها وافدا على أخيه معاوية ، وأناب عنه عبد الله بن قيس التجيبى ، وكانت فيه شدة . فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها . فبلغ ذلك عتبة فرجع الى مصر ، وخطب المصريين فقال « يا أهل مصر ، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم . وقد وليكم من ان قال فعل . فان أبيتم درأكم بيده . فان أبيتم درأكم بسيفه . ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأول . ان البيعة شائعة . لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل . وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المسجد « سمعا . سمعا » فناداهم « عدلا ، عدلا » ثم نزل .

وفى عام ٥٨ هـ ، ولى معاوية بن أبى سفيان ابن أخته عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى ، المعروف بابن أم الحكم ، على مصر ، وكان قبل واليا على الكوفة فطرده أهلها لسوء سيرته . فاستقبله معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر ، وقال له : « ارجع الى خالك . فلعمرى لا تسير فينا سيرتك فى اخواننا من أهل الكوفه » فرجع الى معاوية ولم يدخل مصر .

ثم توجه معاوية بن حديج الى الخليفة معاوية معاتبا ، وكان اذا قدم عليه زينت له الطرق بأقواس النصر وقباب الريحان تعظيما لشأنه . فدخل على معاوية

وعنده أخته أم الحكم ، فقالت : « من هـذا يا أمير المؤمنين ؟ » قال : » بخ بخ ! هذا معاوية بن حديج » .
قالت : « لا مرحبا ! تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ! »
فسمعها معاوية بن حديج ، فقال : « على رسلك يا أم الحكم ، والله لقد تزوجت فما أكرمت ، وولدت فما أنجبت ، اردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار فى اخواننا من أهل الكوفة ! ما كان الله ليريه ذلك . ولو فعل ذلك لضربناه ضربا يطأطىء منه ، ولو كره هذا القاعد » وأشار الى معاوية . فالتفت معاوية اليها وقال لها : « كفى » فكفت .

وفى عام ٦٠ هـ ، توفى الخليفة معاوية واستخلف ابنه يزيد فكتب الى والى مصر ليأخذ البيعة له من أهل مصر . فأبى عبد الله بن عمرو بن العاص ، فأخذ الوالى يغريه بشتى الوسائل ، ويبعث اليه مختلف الرسل من الكبراء الأصدقاء . ولما رأى أصراره لجأ الى القوة ، فبعث اليه صاحب الشرطة ، فهدده ودعا بالنار ليحرق عليه منزله وحينئذ بايع عبد الله مكرها .

وفى عام ٦٢ هـ ، ولى يزيد بن معاوية سعيد بن يزيد الأزدى ، من أهل فلسطين ، على مصر . فلما قدم اليها ، تلقاه أهلها ووجوه الناس . ولما رأوه شابا قال عمرو بن قحزم الخولانى : « يغفر الله لأمير المؤمنين ، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولى علينا أحدهم » . ولم يزل المصريون على الشنآن له والاعراض عنه والتكبر عليه،

حتى توفى يزيد ودعا عبد الله بن الزبير الى نفسه ، فوثبوا على سعيد وعزلوه .

وذكر ابن تغرى بردى أن هشام بن عبد الملك لما ولى حفص بن الوليد على مصر عام ١٠٨ هـ ، كرهه المصريون ، ووالوا الشكوى منه الى الخليفة ، حتى عزله ولم تزد ولايته عن أربعين يوما . ولكن الكندى ذهب الى أن صاحب الخراج هو الذى طلب الى الخليفة عزل حفص ، فأجابه الى طلبه ، لمكانته عنده .

وفى عام ١١٨ هـ ، ولى مصر عبد الرحمن بن خالد الفهمى ، وكان ضعيفا لينا . فأغارت سفن الروم على مصر وأسرت بعض المحاربين . فكره المصريون واليهم لضعفه لا لسوء سيرته ، وشكوه الى الخليفة . فلما تحقق من صحة شكواهم عزله .

وفى عام ١٢٧ هـ ، أعفى مروان بن محمد حفص ابن الوليد عن ولاية مصر ، وولى عليها حسان بن عتاهية. فأبى ذلك المصريون ، وأخرجوا حسانا وأعادوا حفصا الى الامارة . وبعد قليل ولى مروان على مصر حنظلة بن صفوان الكلبى . فامتنع المصريون ، ومنعوا حنظلة من المقام بالفسطاط ، وأخرجوه الى الحوف الشرقى . وفى آخر الأمر اضطروا الى اعلان الثورة ، والاشتباك فى عدة معارك .

وفى عام ٣٠٩ هـ ، عزل مؤنس الخادم ، قائد جيش الخليفة العباسى المقتدر ، تكين والى مصر ، وأقام بدله أبا

قابوس محمود بن جمل ، دون سبب قائم · فعظم ذلك على المصريين وكرهوه . فلم يلتفت مؤنس اليهم ، فكثر الكلام فى عزل تكين حتى أشيع وقوع فتنـــة · وتحدث الناس وأعيان مصر مع مؤنس الخادم ، وخوفوه العاقبة ، وألحوا عليه فى اعادة تكين · وأخيرا رأى أن يلجأ الى الحيلة خوف استفحال الأمر · فأظهر الاذعان وأعاد تكين الى الامارة · وفى الوقت نفسه أخذ يدبر أموره ، ويصـــلح أحواله ، ويوطد مركزه ، ويجمـــع القوى فى يده · واذ اطمأن الى مركزه · جمع القواد وأخذ يحدثهم فى عزل تكين ، ولا زال بهم حتى وافقه الجميع · فعزله وأسرع باخراجه الى الشام فى أربعة آلاف من أهل الفتنة قبل أن يفيق المصريون ويستردوا مراكزهم ويطالبوا برجوعه الى الولاية ·

وأخذ هذا الامتناع فى بعض الأحيان صورة أخرى ، نراه فيما فعله أنصار عثمان بن عفان حين آلت السلطة فى مصر الى يد العلويين · فقد اعتزلوا محمد بن أبى حذيفة ، وقيس بن سعد ، ومحمد بن أبى بكر ، وآثروا الابتعاد عن العاصمة ، ولجئوا الى خربتـــا من مدن مديرية البحيرة · ورأى قيس بن سعد ، لدهائه وحسن سياسته ، أن يلاطفهم فتركهم على حالهم ولم يهجهم ، بل استقدم منهم الوفود ، وبعث اليهم العطاء · فحافظوا على اعتزالهم ، وهدوئهم · أما محمد بن أبى بكر ، فلم يكن كســـابقه ، فأثارهم · فاشتبكوا معه فى مقاومة مسلحة ، لم يستطع القضـــاء عليها · ثم كانت غلطته الثانية ، حين قبل أن يهادنهم على

أن يخرجوا الى معاوية بن أبى سفيان . فكانوا نعم العون له فى الاستيلاء على مصر .

ونهجت مقاومة المصريين لمن كرهوهم من الولاة مناهج أخرى ، أهمها الامتناع عن تنفيذ أوامرهم . امتنعوا مثلا عن تنفيذ ما لم يرضوه من أوامر الخلفاء .. فهذا هو مروان ابن الحكم يستخلص مصر من أيدى الزبيريين ويدخلها غازيا . واذ يتم له ذلك يجمع الناس ليبايعوا له . فيأبى ثمانون رجلا من المعافر ، ويقولون : « انا قد بايعنا ابن الزبير طائعين فلم نكن لننكث بيعته » . فقدمهم مروان رجلا فضرب أعناقهم .

وأراد هشام بن عبد الملك أن يوحد المكاييل فى خلافته ، فبعث مديا الى مصر وأمر أن يتعامل المصريون به . فأمر الوالى فطيف به على القبائل حتى آتى به الى المعافر . فعرض عليهم ، فبرز منهم عبد الرحمن بن حيويل ، وأخذه ثم ضرب به حجرا فكسره ، وقال : « ان لنا ويبه واردبا قد عرفناهما ولسنا نحتاج الى هذا » . فلقب منذ ذلك الحين « كاسر المدى » ، وصار هذا نسبا لبنيه ، يقال لهم « بنو كاسر المدى » . وقال شاعرهم :

قومى الذين تبادروا
مدى الخليفة بالحجر

وتحزبوا وتعصبوا
وجثوا عليه فانكسر

من بعـد ما ذلـت له

أعنـــاق يعـرب بـل مضر

وامتنعوا عن تسليم من يطلبهم الوالى ويبحث عنهم لعقابهم ، وساعدوهم على الاختباء والهرب . فقد تعقب صالح بن على العباسى رجاء بن روح عـام ١٣٧ هـ ، ونمت اليه أخبار أنه مختبىء عند محمد بن بحير . فانتهز ذات يوم حضوره مجلسه فطلب اليه العقود . فلما خلا المجلس قـال الأمـير لمحمـد : « يابن بحير ، ألم أكـرمك ؟ ! ألم أشرفك ؟ ! فكان ثـوابى أن آويت أعـــدائى ! » قـال : « وما ذاك ؟ » قـال : « رجاء بن روح عنـدك » . قـال : « أصلح الله الأمير ! اختر واحدة من اثنتين ، فيها لى براءة ولك شفاء مما إتهمتنى : اما أن ترسل الخيل على غرتى فتفتش منازلى ، واما أن أبرىء صدقك بيمينى » . قال : « فسم امرأتك » . قال : « ابنه فهد بن كثير المعافرى » . قال : « فهى طالق ، وكل مملوك لك حر ، وعليك المشى الى بيت الله ان كان عندك ولا تعلم مكانه » . فحلف . فقال : « انصرف » . فانصرف محمـد بن بحير الى بيته ، وأعلم امرأته ، فكان موقفها لا يقل عن موقفه . قالت : « فلا تظهر ذلك فيعرف فلا ننجو من القوم ، ولكن ادخل على واعتزل مضـجعى » . فد أب على الدخول الى منزله ، وهو معتزل زوجته بالرغم من بقائها فيه ، حتى خرج صالح بن على عن مصر ، فأظهـــر ابن بحير طلاق زوجته ، وأعتــق رقيقه ، ومشى الى بيت الله .

وفي ١٩٨ هـ ولى المأمون المطلب بن عبد الله الخزاعى مصر • فتلقاه السرى بن الحكم الطامع فى امرة مصر ، وأراد أن يفسد أموره ، فأغراه بالمصريين ، وأخبره أنهم متسرعون الى الفتن ، وخوفه من ابراهيم بن نافع الطائى خاصة ، وكان السرى لا يميل اليه • فطلب المطلب ابراهيم الطائى فلم يظهر له ، فجد فى طلبه • واتهم زرعة بن قحزم وهبيرة بن هاشم وجنادة بن عيسى وجزى بن عمرو باخفائه فسجنهم جميعا ، فلم يقر أحد له • ثم بلغته شائعات أنه عند هبيرة بن هاشم ، فأحضره وعرضه على السيف أو يأتيه بالطائى ، فامتنع هبيرة من اظهاره • فلما سكن المطلب عن الطائى ، أخرجه هبيرة الى الصعيد ، فأفلت • وقال سعيد بن عفير يسجل الحادث :

لعمرى لقد أوفى وفاق وفاؤه
هبيرة فى الطائى وفاء السموءل

وقاه المنايا اذ أتاه بنفسه
وقد برقت فى عارض متهلل

فما انفك محبوسا ومطلب له
عليه قصيف بالوعيد المهول

الى أن تجلت عنه أبيض ماجدا
كريم النثا فى المشهد المتدخل

وكتاب المكافأة لأحمد بن يوسف ملء بأمثال هذا للون من الأخبار •

وأبدى المصريــون لونين آخــرين من الامتنــاع عن المعاونة أخطر من جميع الألوان السابقة ، وهما امتناع أهل القرى والمدن عن أداء الخراج ، وامتنــاع الجند عن اجابة طلب الوالى وقت الشدة • وكثيرا ما أدى هذان اللونان الى الثورة العارمة ، أو انهزام الوالى • والأمثلة كثيرة ، وفيت حقها عند الكلام عن الثورات الدامية •

وصفوة القول أن المصريين قاوموا ماكرهوه ومن لم يرضوا عنه ، مقاومة ايجابية بالقوة ، ومقاومة ســلبية بالامتناع عن التعــاون • وكمــا كثرت ثوراتهم الحمراء تنوعت صــور مقاومتهم البيضاء ، وبلغوا فى كثير منهــا أمانيهم التى كانوا يسعون اليها فالمقاومة البيضاء لم تكن عندهم أقل شأنا من زميلتها الحمراء ، ولم تتأخر عنها ، بل ظهر الاثنان فى وقت واحد ، هو وقت ظهور الثورات الاسلامية عامة ، أعنى فتنة عثمان •

الفصل الثانى

المقاومة القولية

لجأ المصريون فيما لجئوا اليه من مقاومة بيضاء ، الى ما قد نسميه المقاومة اللسانية أو المقاومة القولية وأعنى به المقاومة باللسان أو القول . وطبيعى أن تنقسم المقاومة الى نوعين : شعرى ونثرى .

وجدير بنا أن ننبه سلفا أن القسط الأغلب من الشعر المصرى الذى وصل الينا من هذه الحقبة التى ندرسها شعر متصل بالأحداث التى تقلبت على المصريين ، وأقله شعر ذاتى قاصر على المشاعر الشخصية لقائليه . وليس هذا بالدليل القاطع على أن المصريين لم يفرغوا لأنفسهم ، وينكبوا على أحاسيسهم ، ويعبروا عنها شعرا . فربما فعلوا ذلك ، ولكن هذا الشعر لم يصل الينا لسبب من الأسباب . نضيف الى ذلك أن أكثر هذا الشعر محفوظ فى المصادر التاريخية لا الأدبية ، وبدهى أن هذه المصادر لا تعنى الا بما يحقق أهدافها وأغراضها ، ويشهد لأقوالها وحوادثها ، وهو الشعر الخاص بأحداث التاريخ .

ونستطيع أن نرى عناصر مقاومة المصريين الشعرية فى أغراض شتى من أغراض الشعر ، ولكنها تظهر جلية فى الهجاء ، والرثاء ، والفخر ، والاستنفار . ولذلك نقصر الكلام عليها .

وأول أمثلة الهجاء ترجع الى سنة ٨٦ هـ ، حين ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، فغلت الأسعار ، وتشاءم به المصريون ، وزعموا أنه ارتشى . وخرج عبد الله الى الشام وافدا على أخيه الوليد ، فانتهز الشاعر المصرى زرعة بن سعد الله بن أبى زمزمة الفرصة ، وقال :

اذا سار عبد الله من مصر خارجا
فلا رجعت تلك البغال الخوارج

أتى مصر والمكيال واف مغربل
فما سار حتى سار والمد فالج

فلما بلغت الأبيات عبد الله ، أهدر دمه . فهرب الشاعر الى المغرب ، وكتب الى الوليد :

ألا لا تنه عبد الله عنى
كما قد قال يجعلنى نكالا

ولم أشتم لعبد الله عرضا
ولم آكل لعبد الله مالا

وليست الحالة السابقة الوحيدة التى اتهم فيها الشعراء الأمراء بالرشوة والتسبب فى الغلاء ، كما لم يتهم

زرعة وحـده الأمير عبد الله بهذه التهمة ، بل فعل ذلك عبد الله بن الحجاج ورجل لم يذكر اسمه من قريش .

وتعدى الشاعر المصرى الأمير بالهجاء ، فهجا الأمير وصاحب الخراج ونوابهما . قال سعيد بن عفير :

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما
أمسى بمصر من الأنذال فى الامر

أما الأمير فحنـاج وصاحبـه
على الخراج سـوادى من الأكر

هذا الهنائى من الفسطاط يخلفه
والعـاملى على أعمـاله الأخر

كل لصاحبه شكل يلائمـه
فهم سواسية فى اللؤم كالحمر

وما هنـاءة الا ظلف ذى يمن
والعامليـون مأوى اللؤم من مضر

فما يسوغ لنا عيش فينفعنا
مع مانرى لهم من رقة الخطر (١)

وكثر فى هجاء المصريين تعيير الأمراء بالهزيمة فيما اشتبكوا فيه من وقائع حربيـة . قال أبوبجاد الحارثى

---

(١) الامر : جمع امرة - وحناج : مخنث . وسوادى : من سواد العراق ، وهو ريفه . والاكر : الحفر ، يريد بها ما يشقه الزارع فى أرضه للزراعة .

يهجو السرى بن الحكم عندما هزمه عبد العزيز بن الوزير الجروى بشطنوف وقتل ابنه ميمونا :

جمع رعاعك يا سرى فانهـا
حرب تحس سعيرها قحطان

قتلوا أبا حسن وجروا شلوه
كالكلب جر بشلوه الصبيان

ولت تجيب وأسلمته جيادها
عيلان يوم تواكلت عيلان

فاستخرجوه ملببا فأتى به
يجرى ويهرج حوله السودان

لاتبك فالعقبى لاخوته غدا
أو بعده ، فكما تدين تدان (١) .

وكانت الحروب المستعرة الأوار بين السرى والجروى مصدرا ألهم الشعراء كثيرا من القصائد المتنوعة .

ولم يرض الشاعر يحيى بن الفضل عن عنبسة بن اسحق الضبى الوالى ، وكان يذهب الى المسجد دون موكب ، وينادى بالسحور فى شهر رمضان ، ويتهم بمذهب الخوارج فقال :

---

(٢) الشلو : الجسد ، وملبب : جمعت ثيابه عند نحره في الخصومة وجر منها .

من فتى يبلغ الامام كتـــابا

عربيـــا ويقتضيه الجـــوابا

بئس والله ما صـــنعت الينـــا

حين وليتنـــا أميرا مصـــابا

خارجيا يدين بالسيف فينا

ويرى قتلنـــا جميعا صـــوابا

مر يمشى الى الصلاة نهارا

وينادى السحور ، ضل وخابا

ثم نزلت الروم دميـــاط يوم عرفة من ولايتـــه ، فاستولوا عليها ، وقتلوا بهـــا جمعا كبيرا من المســـلمين والنصارى ، فنفر اليهم عنبسة فلم يدركهم • ومضى الروم الى تنيس فاقاموا بأشتومها ، فلم يتبعهم عنبسة • فبعث يحيى بن الفضل للخليفة المتوكل :

أترضى بان توطا حريمك عنـــوة

وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دميـــاط ، والروم وثب

بتنيس منه رأى عـــين وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثـــل ما

أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فلا تنسنـــا انا بدار مضـــيعة

بمصر وان الدين قد كاد يذهب(١)

---

(١) حربه : سلبه ماله . وترتب : مقيمة ثابتة •

وواضح أن الشاعر المصرى كان يعتمد فى هجائه على السخرية والاضحاك ممن يهجوه ، وابرازه فى صوره فكهة .

وظهرت روح المقاومة فى رثاء الشـــاعر المصرى من ينزل بهم الوالى عقابه . ووصلت الينا أمثلة من هذا اللون من الرثاء من العصرين الأموى والعباسى . فقد اغتال مروان ابن الحكم . حينما استولى على مصر واستخلصها من أيدى الزبيريين ـ الأكدر بن حمام سيد لخم ، وكادت تنشب ثورة عارمة يهلك فيها مروان لولا أن حمـــاه بعض المصريين . وقال زياد بن فائد اللخمى يرثى الأكدر :

كمـــا لقيت لخم ما ســـاءها
بأكدر ، لا يبعـــدن أكدر

هو السيف أجرد من غمده
فلاقى المنـــايا وما يشـــعر

فلهفى عليـــك غداة الردى
وقد ضـــاق وردك والمصـــدر

وأنت الأســـير بلا منعـــة
وما كان مثـــلك يســـتأسر

وفى أواخر العصر الأموى.قامت ثورة كبيرة بمصر ، فأتى جيش كبير اليها على رأسه حوثرة بين سهيل الباهلى، استطاع أن يخمـــد الثورة ، ويقتل رؤساءها ، ويغتال

بعضهم الآخر . فأرسل الشعراء الأشعار فى رثائهم ، قال مرسل بن حميد مثلا :

يا حفص ياكهف العشيرة كلها
يا خا النوال وساتر العورات

إما قتلت فأنت كنت عميـــدهم
والكهف للأيتـــام والجـارات

أودى رجاء ، لا كمثـــل رجائنا
رجل ، وعقبة فارح الكربات

وشبابنا عمرو وفهـد ذو الندى
وابن السليط وعامر الفـارات

قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهـم
سروات أقوام بنـــو سروات

وكما كانت ثورات السرى والجروى مصدرا لكثير من قصائد الهجاء ، كانت أيضـــا منبعا لأشعار الرثاء ، التى تبكى من قتل فيها من الرؤساء . قال سعيد بن عفير يرثى هبيرة بن هاشم بن حديج ، وكان من رؤساء المصريين الذين تحترمهم جميع الأحزاب والجماعات بمصر :

لعمرى لقـــد لاقى هبـيرة حتفه
بأفضل ما تلقى الحتوف السوارع

بأنف حمى لم تخالطه ذلة
وعرض نقى لم تشـــنه المطـامع

عشية يستكفيه مطلب الذى
به ضاق ذرعا والمنايا كوارع
فما انفك يحميه ويجعل نفسه
له جنة حتى احتوته المصارع
فلاقى المنايا فوق أجرد سابح
وفي الكف مأثور من الهند قاطع
فبينا يخوض الهول من غمراته
وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
تقطر فى أهوية عن جواده
فصادفه حين من الموت واقع
فلم أر مقتولا أجل مصابه
على من يعادى والذين يجامع
من ابن حديج يوم أعلن نعيه
وقام به فى الناس راء وسامع
فولوا فلولا قد علتهم كآبة
وكلهم بادى التلهف جازع (١)

وبكى كثير من الشعراء الدولة الطولونية بكاء حارا بقيت لنا منه قصائد قلائل ، نمثل لها بقول اسماعيل ابن أبى هاشم :

---

(١) كوارع : يريد متهيئة . والجنة : الوقاية والدرع . ومأثور من الهند : سيف هندى كريم . وتجاشعوا : تزاحموا . وتقطر : سقط . وأهوية : حفرة . .

قف وقفة بفنـــاء باب الســاج
والقصر . ذى الشرفات والابراج

وربوع قوم أزعجــوا عن دارهم
بعـــد الاقامة أيمـــا ازعـــاج

كانوا مصـــابيحا اذا ظلم الدجى
يسرى بها الســـارون فى الادلاج

وكأن وجوههم اذا أبصرتهـــــا
من فضـــــة مصـــبوغة أو عاج

كانوا الثريا لا يرام حماهم
فى كل ملحمة وكل هيــاج

فانظرالى آثارهم تلقى لهــم
علما بكل ثنيـــة وفجـــاج

وعليهم ما عشت لا أدع البـــكا
مع كل ذى نظر وطرف ساج

ونظم فيهـم سعيد القاص قصـــيدته الطويلة التى عالجت تاريخ الطولونيين الزاهر ، وأشـــادت بمفاخرهم ومآثرهم ، وبكت أمجادهم . قال :

جرى دمعه ما بين ســحر الى نحر
ولم يجر حتى أسـلمته يد الصبر

وبات وقيذا للذى خامر الحشــا
يئن كمـــا أن الأســـير من الأسر

وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث تحيفن صبره
وغدر من الأيام ، والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة
أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا
جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها
واشراقها فى عصره ليلة البدر
يدل على فضل ابن طولون همة
محلقة بين السماكين والغفر (١)

ويجتمع الفخر والاستنفار فى قصائد واحدة ، يقولها الشعراء أو بعض الثائرين أنفسهم يشيدون بما أتوا من أعمال ، ويحثون قومهم على مناهضة الولاة والأمراء .

---

(١) الوقيذ : الشديد المرض المشرف على الموت . وتحيفن : تنقصن . والحجر : العقل . والوتر : الثأر .

ويتمثل هذا اللون من الشعر فيمـا كان يقوله أبو الندى الذى خرج على الوالى الحسين بن جميل فى نحو ألف رجل من بلى :

أقول اذا الرفـاق بـدت لوجهى
ألا حلوا رحالـكم وطـيروا

وان لم تتركوهـا فاسـتعدوا
لحرب مثـل حاصبة تفور

أقول لصحبتى : كروا عليهـم
فليس يهرهـم الا الكـرور

ثم ينفرد ببقية أشعار الاستنفار الى الحرب سعيد ابن عفير الذى ينظم القصائد يحاول فيها أن يشجع الجروى، ويحثه على حرب السرى وابنه ، ويلومه لتباطؤه ، وينصحه ألا يبقى على أحد من أسرة السرى . يقول لعلى بن عبد العزيز الجروى :

ألا من مبـلغ الجروى عنى
مغلغـلة يعـاتب أو يلوم

أقمت تنـازل الأبطـال حتى
تميز ذو الحفيظـة والسـئوم

وصلت بهم فما وهنت قواهـم
وطير الموت دائرة تحـوم

ولو هجمت جموعك حين حلوا
عليهم باد . جمعهم المقيم
وكيف رأيت دائرة التوانى
أتتك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمت كيد
لصل لا ينام ولا ينيم

ويقول له مرة أخرى حين فر أمام عبيد الله بن السرى :

ألا يا على بن عبد العزيز
الى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده
عدو ، فكر عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسحبوا
اليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثأرك من أهله
وتلبس بعد الكبو الفسارا (١)

تلك هى الموضوعات الشعرية التى ظهرت فيها عناصر المقاومة القولية من المصريين جلية بارزة . ويتضح منها أن المصرى لجأ الى الفن الذى برع فيه كل البراعة

---

(١) اعتكار : كروهجوم على العدو . والفار : التاج

للنيل من خصومه ومقاومتهم والتشهير بهم ، أعنى به السخرية والاضحاك • ويتضح أيضا أن الشاعر المصرى من أول الشعراء الذين حاولوا أن ينظموا أمجاد بلادهم والصفحات المشرقة من تاريخها ، وأن يبكوا الدول التى وفرت لبلادهم الحضارة والترف والنعيم • وسبقوا بذلك اخوانهم من شعراء الأقطار العربية الأخرى • والقارىء المستقصى للموضوعات الاخرى من الشعر المصرى لا تخطىء عينه بعض الآثار التى تمت الى روح المقاومة ، وخاصة فى المدح ، كمدح الطولونيين وابن الخليج • ولكن هذه الآثار لا تبلغ ما بلغته فى الموضوعات التى أفردتها بالذكر •

ويجدر بى قبل أن أطوى هذه الصفحات أن أشير الى شاعرين تجلت فيهما روح المقاومة المصرية أبلغ التجلى أول هذين الشاعرين أبو عثمان سعيد بن كثير بن عفير الأنصارى • واذا أردنا أن نرسم تخطيطا لترجمة حياته رأينا أنه ولد سنة ست وأربعين ومائة • وتلقى العلوم الدينية فى مصر وبغداد والمدينة ، وصار أحد المحدثين الثقات • وأخذ بحظ وافر من العلوم الادبية ، فدرس علوم الانساب والتاريخ والأيام • وكان الى جانب ذلك شاعرا ذكيا سريع البديهة فصيح اللسان حسن البيان لا تمل مجالسته •

وقد اتصل بالأحداث التى وقعت فى أيام السرى ابن الحكم وأبنائه ، وعبد العزيز بن الوزير الجروى وابنه ،

وشارك فيها مشاركة لها خطرها . وكان شعره سلاحا فتاكا فيها . وكان سعيد بن عفير يمثل الحزب المصرى الخالص المصرية ولذلك ناصر الجرويين ، وهجا السرى وأبناءه ، وبكى كل مصرى سقط فى الميدان . وقد رأينا عدة أمثلة من شعره ، ولكننى أمثل له أيضا بقوله يحرض بنى قضاعة على الثورة حين قتل الوالى أشرافهم الثائرين به :

قتلوا ابن سيدهم وفارس حربهم
عن غير نائرة ولا اجرام
أضحت قضاعة قد علتها كآبة
وبنو الجريش سوافر الاظلام
فلئن قضاعة لم تطالب ثأره
بكتيبة خشناء ذات عرام
ما فى قضاعة بعدها ما يرتجى
للنائبات وما هم بكرام

وقال يرثى عمر بن ملاك الذى قتله الاندلسيون وأنصارهم فى الاسكندرية :

لا يبعدن ابن ملاك فقد ذهبت
منه المنون بعلم طيب النسم
لا يرأم الضيم من حب الحياة ولا
يقبل دون فعال الخير بالقسم
ولا يزال له من مجده طرف
يسند ما حاز عن آبائه القدم

ما انفك يحمي ذمار اسكندرية في

هده حميـــد وعز غير مهتضـم

حتى اذا جاءه من كان يأمنـــه

وصرح الموت جهرا غير مكتتم

خاض الأسنة والهندي محتســـبا

حتى تجرع كأس الموت من أمم

والمتتبع لما بقي من شعر ســعيد يجده يدور حول رثاء كبراء المصريين الذين ســقطوا صرعى الاحداث التى امتلأت بها هذه الحقبة ، والاشادة بفضلهم وشـــجاعتهم وبسالتهم في مواجهة الموت ، وتفضيلهم القتل على الحياة الذليلة ، ونقاء شرفهم ، ومآثرهم ، وكيف قتلوا ،ووجوب الثأر لهم ، وحول لوم الجروى وابنه على التوانى فى الحرب وعدم انتهاز كل فرصة للقضاء على السرى وابنه ، ويحث على الصبر وعدم الفرار واستئصال الخصوم ٠

والشاعر الثانى محمد ابن داود ، وقد حمل لواء المقاومة فى الدولة الطولونية ٠ فألح بالهجاء على أحمـد ابن طولون ، واقتفى خطاه ، فكلما أتم عملا ما ، نظم فيه قصيدة هجاء تطعن عليه وعلى عمله ، وتنتقص من قدره ٠ ولست أدرى سبب هذه العداوة المريرة ، ولا كيف صبر أحمد بن طولون على هذا الشاعر ، ولا كيف أفلت الشاعر من سطوة ابن طولون وبطشه ، فالمراجع التاريخيـــة لا تذكر شيئا من ذلك ٠ ولكن الخصومة كانت من العنف

بحيث لم يستطع الشاعر أن يبرأ من أدرانها بعد موت أحمد بن طولون ، فهجاه أكثر من قصيدة ، دون أن يكون للموت عنده حرمة .

قال محمد بن داود عندما بنى ابن طولون مستشفاه

ألا أيها الأغفـــال ايهـــا تأملوا
وهل يوقظ الاذهــان غير التأمل

ألم تعلموا أن ابن طولون نقمـــة
تسير من سفل اليكم ومن عـــل

ولولا جنايات الذنوب لما علت
عليكم يد العلج السخيف المجهـل

فكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج الى قلب عن الله مغفل

وقال عندما تحصن ابن طولون بجزيرة الروضة ، وبنى المراكب الحربية ، إذ ســمع أن الخليفة قد أرسل جيشا تحت قيادة ابن بغا لمحاربته :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا
ساقيه زرقا الى الكعبين والعقب

بنى الجزيرة حصنا يســـتجن به
بالعسف والضرب ،والصناع فى تعب

له مراكب فوق النيل راكـدة
فما سوى القار للنظار والخشب

يرى عليها لباس الذل مذ بنيت
بالشط ممنوعة من عزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبا
لكن بناها غداة الروع للهرب

وقال فيه بعد موته :

عرج على اليحموم فانزل به
فاسلح على قبر ابن طولونا

وقل له : يا شر مستودع
أخفى لدمع القلب ملعونا

يا حفرة النار التى أضرمت
وظل فيها الرجس مدفونا

لا تجعلى لبسة جثمانه
الا الأفاعى والثعابينا

فعز ابليس بها أولا
وعز من بعد الشياطينا

وقل لهم : قد كان يكفيكم
ويهتك المعروف والدينا

ثم مضى غير فقيد ولا
كان حميدا عمره فينا

ويتضح من شعر محمد بن داود أنه كان يحمل بين جنبيه حقدا هائلا لا يخفف منه شيء ، وأنه كان عنيفا

فاحشا فى هجائه ، ملأه بالصور المقذعة ، ولجأ فيـــه الى السخرية والتهكم • واعتمد على الصور التى تصور ابن طولون فى أوضاع تحط منه ومن أعماله • ولم يتورع الشاعر عن شىء يشين الأمير • فسلبه الدين والخلق والشجاعة وجعله نصيرا للشيطان بل كافيا له •

وخلاصة القول فى الشعر المصرى أنه رافق المعازك :

فمهد لها قبل أن تقوم ، وحث الجماعة المصرية على الخروج على مالا ترضاه ، وهجا من كرهته ، واستنفرها الى الثورة وثبتها فى القتال ، وأشاد بمن ثبت من المصريين ، وعير من هرب ، وطلب اليه الكر ، ثم بكى المستشهدين • وكان سلاحا فتاكا مطواعا لبعض الشعراء ، وأحد أسنته السخرية والتهكم والصورة الفكهة • وقد ازدهر فى الاوقات التى كثرت فيها الوقائع • ولم يختف كل الاختفاء فى غيرهـا من الأوقات ، ولكنه كان أقل انتعاشا •

*

واستخدم المصريون فى مقاومتهم القولية سلاحـــا آخر لا يقل قوة عن الشعر ، ذلك السلاح هو ما اشتهر به أهل مصر قديما وحديثا ، وكاد يكون علما عليهم ، وهو الفكاهة والسخرية • ولم يجد هذا اللون عناية من المؤرخين سواء القدماء والمحدثون • ولذلك لم يتسرب الينا الا ثلاثة أمثلة منه •

فقد ولى عبد الله بن عبد الملك مصر فى ســنة ست وثمانين ، فغلت الأسعار ، وتشاءم به أهل مصر • وأكثروا

من الاشاعات حوله ، وزعموا انه آرشي ، ووسموه بلقب يسخرون منه فيه ، هو « المكيس » • وبالرغم من التحريف الذى أصاب هذا اللقب فى كتب التاريخ ، وجعلنا غير مطمئنين الى صيغته الحقة ، فان الصلة واضحة بينه وبين المكوس والضرائب • ولعل المصريين أرادوا بهذا اللقب أن يلقبوا هذا الوالى جابى المكوس أو الرشاوى •

(وعزم جماعه من الخوارج أن يقتلوا قرة بن شريك والى مصر (٩٠ ـ ٩٦ هـ) ، فوشى بهم رجل يكنى أبا سليمان ، فكان الفقيه المصرى المعرف يزيد بن أبى حبيب كلما هم أن يذكر شيئا يمس الحاكم ، تلفت حوله ، وقال : « احذروا أبا سليمان » • ثم كان يقول : « الناس كلهم أبو سليمان » •

وخرج خارجى يدعى وهيبا فى ولاية الوليد بن رفاعة (١٠٩ ـ ١١٧ هـ) ، وتتبع الوالى ليقتله ، ولكنه فطن له وقبض عليه وقتله • وانتشر على ألسنة القوم حينئذ عبارة : « أين صلاتك يا وهيب » • والمراد منها غير جلى اليوم •

وليس من اليسير تتبع مارمى به المصريون خصومهم من نوادر ونكات ، وما نبذوهم به من ألقاب وصفات ، يسخرون بهم فيها ويتهكمون عليهم • فان هذا اللون من المقاومة القولية ليس من الامور التى كان المؤرخون يأبهون لها • ولكن الامثلة السابقة تكفينا لنقول ان المصريين استخدموا هذا السلاح الذى برعوا فيه لمقاومة خصومهم •

خاتمة

أدت بنا الأبحاث السابقة الى الاعتراف بأن المصريين شاركوا المشارقة مذاهبهم التى تفرقت بهم ، وتغلبت على قلوبهم وعقولهم ، وأنستهم أنفسهم ، فقبـــاموا بالثورات العارمة . فأسهم المصريون فى أول ثورة كبيرة عانتهـــا الخلافة الاسلامية ، وتركت فيها أعظم الآثار ، بل الآثـــار التى لا تزال عقابيلها توجد الى يومنا هذا . فالمصريون لم ينقطعوا عن أبناء عمومتهم واخوتهم فى شرقهم ، ولم ينعزلوا عنهم ، بل كانوا مرتبطين بهـــم بأوثق الروابط . ولذلك كان نصيبهم فى ثورة عثمان من أبرز الانصبة ان لم يكن أبرزها على الاطلاق . ويكفى أنهم نصبوا الرجل الذى كانوا يدعون اليه : على بن أبى طالب ، خليفة على المسلمين ، على حين لم يستطيع شركاؤهم من أهل البصرة والكوفـــة أن يفوزوا بذلك لمن دعوا اليهمـــا . واستمرت الخصـــومة والمعارك بين العلويين والعثمانيين فى مصر أمدا ، الى أن رجحت كفة الأخيرين بعد أن حاز الأمويون الخلافة .

تم قام بنو أمية من المصريين بثورة جارفة فى العهد العباسى ، قوضت دعائم هذا الحكم فى مصر ، وكادت تكتسحه ، وتقيم فى مصر خلافة امويه شـــبيهه بخلافه الأندلس • الا أن قرب مصر من العراق أضر بثورتهـــا • وبعد الأندلسى عن مركز العباسيين يسر للأندلسيين أن يقيموا خلافتهم ويهيئوا لها وسائل الحياة أمدا طويلا •

وتمدنا المصـــــادر التاريخيـــــة بأخبار عن الزبيريين والعباسيين والخوارج ، غير أن هذه الاخبار تدل على ضعف الاولين ، وعلى جهل المؤرخين بالخوارج من المصريين لانعزالهم فى بقاع بعيدة تكاد تنقطع صلتها بالفسطاط • وبالرغم من ذلك ، نستطيع أن نستأنس معتمدين على هذه الأخبار القليلة أن الخوارج أقاموا حكما مستقلا فى الواحات المصرية لا ندرى أطال عمره أم قصر •

وانقضى القرن الهجرى الاول دون أن يقوم المصريون بثورات لأسباب محلية • ولكن ما ان يبتدىء القرن الثانى حتى تتوالى الثورات الاقتصادية الاسباب : قام بهـــــا القبط وحدهم آونة ، والمسلمون وحدهم أخرى ، والجماعتان معا كثيرا • والحق أن ما تدره مصر على عاصمة الخلافة كان آخذا فى التناقص الدائم ، فبعدما كان الذى جباه عمرو بن العاص من مصر ١٢ مليون دينار ، بلغ ما كان يجبى منها فى أيام هارون الرشيد أربعة ملايين دينـــار ثم بلغ حوالى ثلاثة ملايين • وأراد بعض الخلفاء أو عمال الخراج تلافى هذا

النقص ، فاحتال حيلا مختلفة ، أثارت مكامن السخط من المصريين ، فكانت منهم ثورات ، منها العاتى الجارف ، ومنها الصغير المحلى .

وانقضى القرن الهجرى الثانى أو كاد ، واذا بمصر ترى ثورات أخرى ذات لون خاص بها . ثورات يقوم بها أفراد ، لعبت برءوسهم ثروة مصر ومكانتها ، فأخذ منهم الطموح كل مأخذ . فسلكوا كل سبيل لبسط نفوذهم على مصر ، وتأمين هذا النفوذ لأولادهم ، وسلخ مصر عن بقية أقطار الخلافة العباسية . فعل ذلك السرى بن الحكم ، وعبد العزيز بن الوزير الجروى أولا ، وكان نجاحهما محدودا . ثم فعله أحمد بن طولون ثم محمد بن طغج الاخشيد ، ولقيا من النجاح ما أنسى الأولين ، وطرحهما فى ظلام النسيان والجهل . ولم ترض بغداد عن هذا الانسلاخ ، ولكنها تربصت به الدوائر ، حتى وجدت غرة وضعفا من القائمين بأمور مصر ، فبعثت الجيوش فى اثر الجيوش ، وتمكنت فى كل مرة من اسقاط الدولة القائمة ، والعودة بمصر الى مكانها من الخلافة .

كل هذه الألوان من الثورات قام بمصر فى القرون الثلاثة الاولى من الهجرة ، وخضب صفحات تاريخ هذه الحقبة بالدم الزكى ، الشاهد على تسرع وخطأ من يحكم بهدوء الأحوال فى مصر فى تلك الآونة المفعمة بالاحداث فى العراق ، فالمصادر القليلة التى وقعت فى أيدينا من الكتب

الخاصة بالتاريخ المصرى تنقض هـــذا الرأى المعتمد عـلى مصادر التاريخ الاسلامى العامة أو مصادر التاريخ البغدادى الخاصة ٠

وأدت بنا الصفحات السابقة الى تبين أن المصريين لم يقصروا جهودهم على لون معين من المقاومة ٠ فقـــد كانوا ينصحون ثم يمتنعون عن التعاون ثم يتناولون الامر المكروه أو الوالى غير المرضى باللسان ٠ فان لم يجد ذلك كله لجئوا الى الثورة ٠

ولعل أهم ما تبرزه هذه الصفحات أن ألوان المقاومة التى عرفها المشارقة ، عرفها المصريون أيضا ، وأن أسباب المقاومة التى بزغت فى المشرق ، بزغت فى مصر أيضا ، فالتاريخ المصرى الاسلامى جزء من التاريخ العربى العام، لا ينفصل منه ، ولا يتميز عنه ، بعدت مصر أو قربت عن حاضرة الخلافة ٠

واذن ، فمصر لم تنعزل عن بقية أقطار العروبة أبدا ٠

الثورات الشعبية فى مصر الاسلامية

ملتزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكاتب الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

الفرع	العنوان	التليفون / المدينة
١ — فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ١٠٠١٢ القاهرة
٢ — فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ — فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ — فرع الجديد	١٣ شارع مصطفى ...	٢٤١٨٧ القاهرة
٥ — فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢ القاهرة
٦ — فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٣٣٣ القاهرة
٧ — فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ — فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	١٩٨٨٩٨ القاهرة
٩ — فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ — فرع الاسكندرية	١٩ ش سعد زغلول	٢٥٩١٥ الاسكندرية
١١ — فرع طنطا	ميدان الساعة	٥٠٤٤ طنطا
١٢ — فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ — فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

المركز / الوكيل	العنوان	البلد
١ — مركز توزيع الجزائر	شارع ... رقم ١١ مارس	الجزائر
٢ — مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	حلب
٣ — مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ — عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ أيار — دمشق	سوريا
٥ — الشركة العربية للتوزيع	ص ب رقم ١١٢٨ بيروت	لبنان
٦ — قاسم الرجب	مكتبة المثنى — بغداد	العراق
٧ — رضا العبسي	وكالة التوزيع — عمان	الأردن
٨ — عبد العزيز العبيس	دار التوزيع ص ب ١٠٧٦	الكويت
٩ — وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ — مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص — ليبيا	بنغازي
١١ — محمد بشير الفرجاني	٣٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ — الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ — وكالة الأهرام	شارع الرشيد	مسقط
١٤ — المكتبة الوطنية	المنامة — الخليج العربي	البحرين
١٥ — مكتبة العروبة	ص ب ١٢ و ٩٤	الدوحة
١٦ — عبد الله حسين الرستماني	المكتب الأهلي ص ب ٣٦١	دبي / عمان
١٧ — المكتبة الحديثة	ص ب ٢٢	مسقط
١٨ — أحمد سعيد عقاد	المكتبة الوطنية ص ب ٢٥	المكلا
١٩ — مكتبة دار العلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ — علي ابراهيم ...	ص ب ٨٢	أسمرة
٢١ — عبد الله قاسم العراقي	ص ب ١٧١١	أديس أبابا
٢٢ — مكتبة ستر	ص ب ٩٣٦	مقديشو
٢٣ — عبد الله حاج محمد	ص ب ٥٥٥	ممباسا
٢٤ — مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ — المكتب التجاري العربي	٤٠ ش كندهار ص ب ٥٥٢٥	سنغافورة
٢٦ — مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ — مكتبة النصر		وادي مدني
٢٨ — وكي جرجس طليوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ — ابراهيم عبد القيوم	مكتبة الخرطوم ص ب ٤٨٥	بور سودان
٣٠ — عوض الله محمود ...	مكتبة ... ص ب ٩٤	عطبرة
٣١ — عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ — مصطفى صالح	ص ب ١٤	كوستي

سعر البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري — لبنان ٥٠ قرش لبناني — الأردن ٥٠ فلس — العراق ٥٠ فلس — الكويت ٧٠ فلس — السودان ٥٠ مليم — ليبيا ٥٠ مليم — قطر ٧٥ درهم — البحرين ٧٥ فلس — غانا ١٠٠ سنت — أديس أبابا ٥٠ سنت — أسمرة ٥٠ سنت — الجزائر ٨٠ سنتيم

- تخرج في كليه الآداب بجامعة القاهرة ١٠٤٧
- حصل على الدكتوراه من جامعة القاهره ١٩٥٣
- أستاذ مساعد للأدب المصرى فى المعهد الاسلامى
- زار السودان وسوريا ولبنان والسعودية والكويت وتونس والاردن من البلاد العربية ، وايطاليا واسبانيا .
- حقق عدة دواوين من الشعر العربى والمصرى .
- نشر فى هذه السلسلة « الادب الشعبى العربى »
- من مؤلفاته : نشأة الكتابة الفنيه فى الادب العربى ومصر العربيه والمعجم العربى ،



الدكتور حسين محمد نصار

